عشى ليلي

ماهر مهران

دار الساقي

صدر للمؤلّف

١ – **هفهفات النخيل**، شعر، وزارة القافة (قصور الثقافة) ، مصر، ١٩٩٨.
٢ – **عزيزة**، شعر، وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)، مصر، ٢٠٠٢.
٣ – **أغاني أشجار السنط**، شعر، وزارة الثقافة (مكتبة الأسرة)، مصر، ٢٠٠٣.
٤ – **الخدامة**، شعر، وزارة الثقافة (مكتبة الأسرة)، مصر، ٢٠٠٥ .
٥ – **أوجاع متوحشة**، شعر، دار الكتب (نشر خاص)، ٢٠٠٧.
٦ – **تعليم مجاني**، شعر، نشر خاص، ٢٠٠٨.
٧ – **أيه ده**، شعر، دار صبح (نشر خاص)، مصر، ٢٠١٠.
٨ – **قاو أسطورة الدم**، رواية، دار وعد، مصر، ٢٠١٠.
٩ – **الترنج الأبيض**، شعر، مكتبة جزيرة الورد، مصر، ٢٠١١.
١٠ – **ويقول عبدالصبور**، شعر، دار وعد، مصر، ٢٠١٢.
١١ – **بنات قبلي**، رواية ، وزارة الثقافة (قصور الثقافة)، مصر، ٢٠١٣.

الأعمال الدرامية

١ – **مكتب أم عتريس للزواج الحديث**، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر.
٢ – **كاتيا العسل** (مأخوذة عن رواية **العطر الفرنسي** لأمير تاج السر)، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر
٣ – **الآخر أنا** (مأخوذة عن رواية **الآخر مثلي** لساراماجو)، اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر.
٤ – **بن يجوب العالم** (عن رواية لدوريس ليسنيغ) اتحاد الإذاعة والتلفزيون، مصر.

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

ماهر مهران

عشق ليلى

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-775-3

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 5342/113، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866 1-961+، فاكس: 443 866 1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

(١)

كعادته أخر كلِّ نهار يمشي الحمار الأسود الضامر النحيل الذي برزت عظامه، وتراخى جلده، واستطالت أظافره، وارتفعت أصوات تنفّسه، وشاخت عيناه وزادت التجاعيد وكرمشات الجلد حولهما، وتراكم الدمع الغزير الصافي النقي على حوافهما، واتّسعت فتحتا أنفه، ووقعت أسنانه وأنيابه، يمشي الحمار في طريقٍ ضيقٍ يحفّه البرسيم ذو اللون الأخضر المبهج من اليمين، ومن اليسار القمح النابت عفياً في أرضنا السمراء بخضرته الفاتحة أو الحلفاء بخضرتها الثقيلة وحوافها الشوكية الجارحة على رؤوس الغيطان، يمشي الحمار مشياً منتظماً، مشياً له إيقاعٌ ثابتٌ آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه...

يمشي الحمار العجوز الضامر المسنّ الجائع، وهو يحمل على ظهره ذي العظام البارزة والضلوع التي تُعدّ بالواحدة صاحبَه حميد رزق السقا الذي جاوز الستين من عمره بشهورٍ قليلةٍ، والذي يمتلك بنياناً ضخماً كالجمل وربما كالفيل، وعلى ظهر حميد قربة الماء الجلدية السوداء الممتلئة بالماء البارد، الماء يهتز داخلها وهو يصدر لقيقاً جميلاً، وحبلها النحيف المصنوع من ليف النخل يدور حول

عنقه العريض كجملٍ وصدره الأعرض كحصانٍ، وعلى عينيه نظارة طبية سميكة العدسات وكبيرة، لُفَّ حول عصا شنبرها قماشٌ ناعمٌ كي لا تجرح صدغيه، هي تشبه قعر كبّاية[1] الشاي الزجاجية الرخيصة، وفوق رأسه لبدة رمادية قديمة ممزقة الحواف، من الصوف، لُفَّ حولها شالٌ أبيض يتدلى على جلبابٍ ثقيلٍ واسع الأكمام والحِجْر ويصل حتى قدمين عريضتين كبيرتين شديدتي السمرة خشنتي الملمس جداً بهما تشققات كبيرة تشبه تشققات الجدران الطينية المعجونة بدون تبن ناعم في بيوتنا القديمة أو الأرض الطينية السمراء وهي عطشى، وينبت منهما عشرة أصابع تشبه أصابع الملوك الحجرية المنحوتة من الجرانيت في جبالنا التي تحاصرنا من الخلف منذ بدء الخليقة. يمشي الحمار الضامر وهو يحمل صاحبه حميد رزق السقا فوق ظهره وهو يتمايل بظهره إلى الأمام والخلف تمايلاً يتناغم مع خطوات الحمار، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه، يتمايل كدرويشٍ انسجم في حلقة ذكرٍ ساخنة تغمرها همهمات الوجد، وترك روحه تحرِّك جسده كيفما تريد...

يقطع الحمار الطريق الترابي بصبرٍ غير مكترثٍ على الإطلاق بالأشواك الملقاة منثورةً بشكلٍ عشوائي في الطريق، ولا بالحجارة والحصى الموجودة هنا وهناك، ولا بالحفر المتفرقة يميناً ويساراً، فهو يحفظها حفرةً حفرةً، ولا ببرد يناير الذي لسع بعض أوراق البرسيم وحوَّلها من الأخضر الوردي إلى الأسود المحروق، يمشي بإيقاعه الثابت، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه، ولا يتوقف إلا عندما يرى

١ كبّاية: كأس.

حميد السقا رجلاً من رجال القرية يقرفص على أطراف أصابع قدميه وسط حقول البرسيم كلاعب بالية محترف، يمسك بيد المنجل المشرشر[1] الخشبية الذي يبرق حديده كالفضة أو كشمسنا وقت الضحى، يحشّ البرسيم بمهارة ولياقة وخفة حركة. يتوقف الحمار مكانه، يمسك صاحب الحقل حزمة برسيم كبيرة، يضمّها إلى صدره، تغطّي وجهه وتبلله بالندى الطاهر الذي نداوي به الجروح التي تصيب أجسادنا، يجري نحو حميد السقا، يضع حزمة البرسيم أمام حميد على ظهر الحمار ثم يسلّم عليه، ويردّ حميد السلام دون أن ينزل عن ظهر الحمار. ثم يتحرك الحمار، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه، حتى يرى حميد رجلاً آخر يجلس على أطراف أصابعه كلاعب بالية آخر – ماهر أيضاً – بجوار حوض بصل تهدّلت أوراقه، وغطّى سواد المنّ جزءاً منها، وبرزت رؤوسه البيضاء العفية[2]، وهو ينقّي الحشائش من بين البصل مستخدماً مطواة[3] قرن غزال حادةً وفضيةً أيضاً كشمسنا وقت الضحى، يغرس المطواة في الأرض بيد ثم باليد الأخرى يشدّ الحشائش وينفض عنها الطين الأسود الذي علق بها ثم يضعها على كومة حشائش خضراء بجواره. يتوقف حميد بمحاذاة الرجل، بسرعة يقتلع الرجل بعض البصل من الأرض، ينفض الطين الأسود العالق بالبصل، يخطو مسرعاً نحو حميد السقا، يسلّم ويضع حزمة البصل بين يدي حميد الممتدتين فوق حزمة البرسيم، ويستأنف

١ المشرشر: المسنّن.

٢ العَفِي: ذو الصحة الجيدة.

٣ المطواة: السكين.

الحمار السير، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه... ومثله يروح حميد في التمايل والاهتزاز، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه... حتى ينتهي من هذا الطريق الترابي الضيق، ويدخل طريقاً أوسع لكنه أيضاً طريق ترابي تحفّه البيوت الطينية التي يغطّيها البوص[1] الناشف بلونه الذهبي وبعض البيوت المبنية بالأسمنت والطوب الأحمر والحديد المسلّح. وكلما اقترب من بوابة بيت يقف الحمار لوحده دونما أمر من حميد. يقف الحمار العجوز أمام البوابة الخشبية وينادي حميد باسم أحد الأبناء الذكور، فهنا المناداة باسم البنات عارٌ وعيبٌ، وبسرعة تخرج سيدةٌ أو فتاةٌ وهي بملابس الخبيز أو الطبيخ أو العجين، تعطيه هذه خبزاً شمسياً أحمر الوجه أصفر الظهر منتفش البطن، يقطع منه لقمةً، يضعها في فمه، يلوكها باستمتاع كما يلوك قطعة ملبن، والأخرى تعطيه ثوماً أبيض فصوصه عفية، والثالثة تعطيه حزمة ملوخية خضراء، والرابعة تعطيه بعضاً من قرون الويكة[2] المشوّكة ذات الخضرة الفاتحة الرزينة، والخامسة تعطيه زوج حمام أبيض أو فرُّوجةً[3] اختلطت حمرتها الذهبية بسوادها القطيفي اللامع، أو بطةً، أو إوزةً بيضاء، أو فريكاً حباته خضراء ممزوجة قليلاً بالأصفر، أو بلحاً محمّصاً ناشفاً رمادياً، حتى يصل إلى دوار الحاج زعمان أبو عقل الواسع رحمه الله، ويجد شامية زوجة أخيه عبده، بعودها الناحل وملامحها الغاضبة وبشرتها الصفراء، وهي تجري حافية القدمين بعرقوبٍ ظاهرٍ خلف الصغار

١ البُوص: مفردها "بوصة"، وهي عيدان الذرة اليابسة الجافة.

٢ الويكَة: نوع من الطعام يُصنع من البامية.

٣ فرّوجة: دجاجة.

بسباطة[1] نخل ناشفة، ويلمح عبده بعباءته الحمراء وقد تكرمش جسمه وهزل بدنه ونحل منذ أصيب في الحادثة الأخيرة وتهشّمت عظامه وسيارته وصار منكمشاً ضئيلاً ملاصقاً لزاوية الدكّة الخشبية بعد أن كان حلم أحلام البنات، كل البنات، بعينيه الخضراوين وبشرته البيضاء وشعره الأصفر وخاتمه الذهبي الكبير وسجائره المستوردة وعطوره النادرة وأحذيته الجلدية الغالية الثمن، لكنه نسي ربه وتجبَّر عندما جاء رجلٌ غريبٌ يريد أن يفعل خيراً، ووجده جالساً أمام مقام سيدي الشيخ سلمان أبو علي. سأله الرجل:

– هل أنت المسؤول عن هذا الجامع وهذا المقام؟

قال كذباً وتمثيلاً للرجل الضيف الكريم: نعم!

بدون تردد أو شك أعطاه الرجل مبلغاً كبيراً من المال، يتردد بين الناس في قريتنا أن الرجل أعطاه خمسين ألفاً، وطلب منه أن ينفقها على تجديد الجامع وتجميل المقام، لكنه رمى ربّه وراء ظهره وأخذ هذا المال لنفسه رغم أنه ثري ولديه أطيان كثيرة وممتلكات تُعدِّه من أكابر القرية، لكنه طمع وأخذ هذا المال لنفسه. وقبل أن تمر أربعون يوماً بالتمام والكمال على مقابلته رجل الخير أُصيب في حادثٍ على الطريق السريع. كان ذاهباً إلى البداري ليشرب الشاي مع شباب عائلة النواصر أصدقائه، وهو يقود سيارته الهيونداي الجديدة، فهُيّئ له أنّ رجلاً ضخماً يقف أمامه ويسدّ عليه الطريق، ارتبك واهتزت يداه واختلت عجلة القيادة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو نائم على سرير المرض في حجرة العناية المركّزة في مستشفى القصر العيني بأسيوط،

---

١ سُبَاطِة النخل: الجزء اليابس الذي يحمل البلح لكن بعد أن يؤخَذ بلحه ويُجفَّف.

ومن يومها وهو ملازم الدكّة الخشبية ولا يتركها رغم قسوتها على ما تبقّى من لحمه ودمه وعظامه.

يهمّ حميد بالنزول عن ظهر حماره والسلام على الحاج عبده، لكن الحاج عبده يأمره بعدم النزول عن حماره. يرضخ حميد لأمر الحاج عبده، ومن داخل الدوار الواسع القديم ومن داخل بوابته العتيقة العالية تأتي الحاجة دلبهان بعودها الفارع، وبشرتها البيضاء، وكردانها الفرعوني الذهبي الكبير، وحلقيها الذهبيين اللذين يلامسان كتفيها، وحجلها الفضي، وبشرتها التي تنمّ عن ثراءٍ وأصلٍ عريقٍ، تأتي ممسكةً بصرّةٍ من القماش، تسلّم على حميد وتعطيه اللفافة التي تفوح منها رائحة خميرة خبزٍ قوية لتستخدمها زوجته سنية في الخبيز، ومع الخميرة بعض الخبز والطير. ثم يمشي الحمار الضامر ذو الأظافر الطويلة التي غطّاها الطين المتصلّب حولها في الطريق الترابي، وهو يحمل حميد السقا الذي اعتاد أن يأخذ كل هذه الأشياء مجاناً من أهل القرية، فهو رغم أنه لا يمتلك قيراطاً واحداً في زمام قريتنا إلا أنه يعتبر نفسه شريكاً لكل سكان القرية، وإن كان المتسوّل في بلدنا له نصف البلد، فالسقاء له البلد كلها، وإن بخل عليه أحدٌ – وهذا نادراً ما يحدث – فإن حميد السقا يغضب عليه ويعاقبه بعدم الذهاب إليه بقربته الجلدية وسطله الصفيح في الأفراح والجنازات، وذلك بعد أن يذكّره بما قدّمه جده المرحوم رزق السقا من بطولات في الدفاع عن القرية بجوار رجالها الشجعان عندما حاربت الحكومة الظالمة التي جاءت في القرن الماضي لتهدم القرية فوق رؤوس ساكنيها الذين تجرّأوا وتمرّدوا وثاروا على الحكومة ورفضوا دفع الضرائب. يمشي

الحمار، وقبل أن يخرج من الرهبة[1] يبرطع ويوشك أن يطيح بحميد وبالأشياء التي معه على الأرض، لكن حميداً يتماسك ولا يسقط، وبسرعة يلتفت حوله ويقول لدوح الواقف بجواره وهو يضحك وقد شمّر طرف جلبابه الأنيق إلى أعلى وفرد شاله الكشمير على كتفيه، وحرّك سيجارته في فمه، وبعصاه الخيزران الأنيقة وهي تتمايل، يضحك وهو يحدّق في نظارة حميد الطبية الكبيرة:

– كنت هاتوقعني يابوالحاج!

يعاود دوح غمز الحمار بمطواة قرن غزال في يده، يبرطع الحمار، يتماسك حميد، يبتسم دوح ويقول مازحاً:

– اللهم صلّي على كامل النور...

يمشي الحمار، تزغلل عين حميد، تزداد حمرة عينيه، ينظر أمامه، تتضاءل الرؤية الجانبية لعينيه، ينظر إلى الغرب وكأنه طفلٌ وضع أنبوبتي قلم فرغتا من الحبر أمام عينيه، ينظر، ولا يرى سوى من خلالهما، فيهزّ ساقيه على بطن حماره العجوز ويحثه على السرعة في المشي. يستجيب الحمار ويمشي مسرعاً ولسان حاله هو وصاحبه يقول: آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه...

---

١ الرَّهَبَة: مكان واسع وفضاء أمام البيوت.

(٢)

يصل الحمار إلى بيتٍ طينيٍّ قديم عبارة عن حجرة سطحها من الجريد المخلوط بالطين والتبن، وفوقها بوص الذرة الناشف المخلوط بالسواد والغبار، وربما الثعابين والعقارب والسحالي. أمام الحجرة جميزة عجوز جذعها مثل فيلٍ ضخم وفروعها تصل إلى السماء، وهي تحمل ثمار الجميز ذاتَ الحُمرة المبهجة، وحول الجميزة رهبةٌ واسعةٌ شديدة النظافة، فلا أحجار ولا أتربة ولا أوراق أو أكياس. ما إن يشمّ الحمار الضامر تراب الرهبة حتى يتوقف مكانه ويفتح فتحتي أنفه عن آخرهما وينهق بصوتٍ يسمعه كل أهل القرية. فبعض الحيوانات – مثل حمار حميد – تعرف أوطانها بدون أن تذهب إلى المدارس ومن غير أن تتلقى دروساً في التاريخ ولا الجغرافيا. يهزّ حميد ساقيه هزّاً متتابعاً ويضرب بهما بطن الحمار كي يتحرك، لكنّ الحمار يعصي أمره ولا يتحرك. يعاود حميد هزّ ساقيه، تتمسّك أظافر الحمار بأرضية الرهبة أكثر. يحدّق حميد في المكان جيداً وبالكاد يرى بنظره الضعيف جذع الجميزة الضخم أسود اللون وليس بنياً، فيعرف أنه قد عاد إلى البيت، لكنه لا يرى الزرازير التي فرّت بسبب

نهيق الحمار، ولا يرى الدجاج الملون ذا الأعراف الملونة الجميلة الذي هرب إلى داخل الحجرة عندما مرق ثعلبٌ بسرعة البرق من الشمال إلى اليمين، ولا يرى حمرة الشمس وهي تختفي خلف لوحةٍ رُسمت كلها بالأخضر: نخيل الترعة[1] العالي الأخضر الداكن الذي يحاصر قريتنا من الغرب، والتين الأخضر الغامق، ثم النبق ذو الخضرة المبهجة، ثم المانجو ذو الخضرة الداكنة، ثم الصفصاف بخضرته الغامقة، ثم الجوافة والليمون بخضرتهما الفاتحة، ثم عيدان الذرة بخضرتها الداكنة جداً. يحدّق حميد جيداً وهو يقرّب نظارته من عينيه، وبالكاد يرى زوجته من دون كل هذه الأشياء، ويقول:

- خدي يا سنية.

- ياما جاب الغراب لأمه!!!

يتجاهل حميد سخرية زوجته سنية العفية الفائرة التي تشي تقاسيم جسمها بأنها أنثى صارخة الأنوثة، خاصةً وأنها ترتدي ثوباً ورديا برعت لواحظ الخيّاطة في إبراز ثديين ممتلئين متحفزين يكادان يمزّقان صدر الثوب الوردي الجديد الذي يُبرز بدايات ثديين مكتنزين وبطناً كعجين القمح الخمران في الماجور[2] الفخاري، لا ترهّلات ولا نحافة، ومؤخرتين بارزتين وساقين تفوقان روعةً سيقان الفتيات اللاتي رسمهن الفنانون الرومان في جبلنا الشرقي، وعنقاً رخامية طويلة زُرعت في أرضٍ من الزبدة. لا يرى حميد كل هذه التفاصيل،

١ الترعة: الساقية.

٢ الماجور: إناء فخاري يستخدم للعجين.

إنما يرى ألوان الإيشارب[1] الذي لفَّته سنية فوق شعر رأسها تسيح على ألوان الكحل في العيون السود الواسعة على ألوان زهور الثوب المنقوش على لون البشرة. بالضبط يرى حميد زوجته سنية عبارة عن لوحة بديعة اختلطت ألوانها المبهجة لتعطي كتلةً رمادية يراها بالكاد، فهو، للأسف الشديد، رجل طيب مصاب بعشى الألوان، وفور أن تغرب الشمس تختلط الألوان في عينيه حتى لو كانت هذه الألوان ألوان زوجته التي تزوجها وامتزج بها منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً!!

يمدّ ذراعيه بالبصل الأخضر والثوم الأخضر والحمام الأبيض والخبز والخميرة والزبدة وكل ما رُزق به هذا اليوم ويبتسم ويقول لسنية:

– أمسكي.

– دخِّلهم.

يهزّ حميد رأسه في صبر، يتجاهل ردّ زوجته سنية المستفزّ، ينزل على مهلٍ عن ظهر حماره العجوز بقدمه اليمنى، وبحذرٍ شديد يتحسس موضع قدمه وهو يضمّ إلى ذراعيه كل ما جلبه معه، وعلى ظهره القربة. ينزل ويخطو نحو سنية، يضع كل الأشياء تحت قدميها إلاّ زوج الحمام الذي يمسكه ويبتسم ويقدّمه لها قائلاً:

– عشِّينا بيه يا سنسونتي يا قمرة!

– لو كان هاينفع كان نفع.

يشعر حميد السقا بسكين تمزّق كبده، فهو يعرف أنها ترغب

---

١ الإيشارب: منديل الرأس.

في الإنجاب منذ عقود، وتتمنى أن ترزق من حميد بولدٍ أو بنتٍ، أو حتى كلب أو قطة، لكي تسدّ أحناك النساء الشامتات وتوقف نظراتهن اللعينة وكلماتهن الجارحة. لكنّ حميداً لم يترك باباً إلا وطرقه، ولا مقاماً إلا ولفَّ حوله السبع لفات وكنّس ترابه، ولا شيخاً إلا ودمعت عيناه من دخان بخوره الحارق وتألمت كتفاه من رفع يديه فوق دخان البخور المشتعل لساعاتٍ طويلة. ينظر إليها في حبّ ويذكّرها بأنه ذهب بها إلى كل المشايخ والعرّافين والنصّابين والمستشفيات والعيادات، وبأنه أكثر حرصاً منها على الإنجاب، فنسله ونسل عائلة رزق السقا كلها مهدّد بالانقطاع والفناء من الدنيا كلها. لكنها بغضب تقول:

– فريد واد أخوك إتجوَّز وهايخلِّف.

– بعد سنة من الجواز طلع زي عمه؟!

– أنا إيه اللي وقَّعني معاكم.

– أصبري يا سنية.

– بعد ما وصلت الستين هاصبر إيه تاني؟!

– مفيش حاجة كتيرة على ربنا.

(٣)

يضع زوج الحمام تحت قدميها ويبتلع مراراته، ويخطو منكسراً حزيناً ناحية الجميزة، يضع القربة برفق فوق جذر الجميزة البارز والممتد والملتوي كثعبانٍ خرافي، وينزل بجسده الضخم على بقايا حصيرة من الحلفاء مفروشة في هذا المكان، ينزع اللبدة والشال عن رأسه ويضعهما جانباً، ثم يضع رأسه الغليظ ذا الشعر الأبيض المجعّد الخشن على القربة التي تنضح الماء، ثم يمدّد جسده الطويل كطول حزنه وهمّه على الحصيرة فيشعر بالصقيع الشديد يخترق جسده، وبرفق يغطّي يديه بأكمام الجلابية وقدميه بذيل الجلابية القديمة، وينظر إلى السماء الصافية التي تشبه زرقة النيل وهي تتزين بالنجوم التي بدأت تظهر ساطعةً وقريبةً جداً من أوراق الجميزة. الضفادع تصدر نقيقاً صافياً وكأنّ القرية خلت من كل شيء إلاّها. طبعاً حميد لم يرَ كل هذا، هو فقط ينظر إلى لوحة مختلطة الألوان ويحكي لزوجته عن الحاج أحمد فراج الذي تجاوز السبعين ولم ينجب سوى بنت تزوجها ابن عمها، وذات يوم تشاجر مع عمه وقال له وهو يعيّره بأنه سوف يرثه إن عاجلاً أو أجلاً. يغضب الحاج أحمد

ويقرر الزواج، وما هي إلا أيام وكانت الزوجة الجديدة في بيته، وما هي إلا شهور وكان الحمل، ثم ولدت له ولداً، ثم ولداً، والآن لديه ستة أولاد...

– قلت لك إتجوز.

تقول سنية هذا الكلام في غضب وتوتّر وهي تلفّ القيد المصنوع من الليف حول قدمي الحمار الضامر، ثم تأخذ بعض البرسيم وتعطيه للحمار، ثم تأخذ بقية الأشياء وتتجه بها إلى الداخل بينما حميد يبقى نائماً على بقايا الحصيرة المفروشة على الأرض أسفل الجميزة وهو يقاوم الصقيع الشديد وبين الفينة والأخرى يحكّ جسمه من قرص البراغيث، فالبراغيث هنا، رغم النظافة، كثيرة ومؤلمة، وما إن تكشف جزءاً من جسمك حتى ترى البراغيث الحمراء تتقافز بخفة على جسمك وفوق ملابسك وفوق البطاطين[1] واللحف وبين الخشب والتراب ووسط حقول القمح، منها الأحمر النحيف شديد اللدغات والأحمر البدين بطيء الحركة كثير الدماء سهل الاصطياد. يرفع حميد صوته وهو يهرش جسمه ويحكي عن الصبر وعدم فقدان الأمل في الله، ثم يستمع إلى صوت سنية القادم من الحجرة غاضباً وهي تلعن حظها وتلعن اليوم الذي رأته فيه وتلعن من تسبَّب في زواجها من عائلة مؤهّلة للفناء والانقراض...

يأخذ حميد نفساً عميقاً ثم يخرجه كساحرٍ يُخرج النار من فمه، ثم يهرش رأسه، ثم ظهره، ثم ينظر إلى السماء مرة أخرى، ومرة أخرى لا يرى سوى خليطٍ من الألوان وكأن السماء لوحةٌ رسمها فنانٌ عبثيّ

١ البطاطين: مفردها بطّانية، غطاء السرير.

مغرمٌ بالعبث بالألوان. المهم أنه يغمض عينيه ويفكر في حال قرانا البائسة المعزولة عن الدنيا، يتذكر حال قرية هارمينا، حيث الخوف هذه الأيام يلفّ شباكه عليها، ومنذ الغروب يدخل رجالها بيوتهم، ويوصدون بواباتهم المصنوعة من خشب السنط المتين بالترابيس الحديدية جيداً، ثم يتناولون عشاءهم في ترقّبٍ وحذر، ويبقون طوال الليل لا تغمض عيونهم، وهم خائفون من سرقة مواشيهم أو غلالهم أو أموالهم أو نسائهم أو أطفالهم، أو أن تصيبهم نارٌ مجهولة المصدر تحرق بيوتهم وحقولهم ومواشيهم ودور عبادتهم، وربما تحرق أولادهم أمام أعينهم، وربما تحرقهم هم أنفسهم، وإن ناموا قليلاً ينامون كالذئاب: عينٌ مفتوحةٌ والأخرى بالكاد مغمضة!!

يشتدّ البرد وتزداد لسعات البراغيث، ويسمع حميد أصوات الرعد المخيفة، وكأنّ جبالاً انهارت فجأةً فوق رأسه، ثم يظهر البرق سريعاً ويختفي سريعاً، ثم يشعر حميد ببعض رذاذ المطر يسقط على وجهه، لا يكترث بالمطر، ويزمّ شفتيه، ويتذكر عزبة أبو الشامات وما تتعرّض له هذه الأيام من نيران تشتعل فجأةً وتنطفئ فجأةً، تحرق الناس مرةً، ومرةً تأكل التبن والبوص وتشعل الحرائق، ومرةً تأكل الماشية من أكبر جاموسة وحتى صغار الماعز، ولا يعرف أحد مصدر هذه النيران. يضحك عندما يتذكر أنه منذ أيام عندما سمع بنارٍ اشتعلت فجأةً في امرأتين كانتا تعجنان دقيق القمح أمام بيتٍ فقيرٍ، وبسرعة يذهب حاملاً القربة على ظهره، ويجد النار قد تمكّنت من ثوبيهما الفقيرين ومن لحمهما الضامر المكرمش، وبسرعة يفرغ كلّ ما في جوف قربته من ماء عليهما، لكن ماءه لا يطفئ هذه النار العجيبة ولا ينقذ المرأتين!!

يضحك، ويشعر بزيادة الرعد والبرق وحجم حبّات المطر وسرعة نزولها وارتطامها بما ظهر من بدنه. يأخذ نفساً عميقاً ويخرجه زفيراً حارقاً، ويتذكر عزبة أبو عقل حيث تفكُّك وحدة رجالها وتطاول العائلات الأخرى عليها، وأيضاً تطاول شباب العائلة على شيوخها، ثم يذكر ماضي هذه العائلة العريق ويضحك ساخراً بأعلى صوته.

كان الحاج زعمان، كبير عائلة أبو عقل قد ورث عن أبيه ثمانين فدّاناً، وورث أناقته وحبّه للنساء وللسفر والمراهنات وإدمان الأفيون، وظل هكذا حتى نحل جسمه وصغرت حيازته وقلّت هيبته، ومات تاركاً ما بقي من الأرض لأخيه عبده الذي طمع في نصيب إخوته وأبناء أخيه المرحوم زعمان. وأصبحت الرهبة التي كانت مثالاً للهيبة ساحةً لشجار عبده وإخوته وأبناء أخيه ونساء العائلة منذ أن أُصيب في الحادثة الأخيرة، ومنذ أن دخل الصراع لاعبٌ جديدٌ هو زوجته شامية المغرورة المتسلّطة بنت عائلة أبو الشامات التي تحرّضه وتشجّعه على أن يأكل حقوق إخوته وأخواته وأبناء أخيه، بل وتدبّر له الخطط وتأمره بتنفيذها!!

يزداد المطر هطولاً ويعلو صوت الرعد، وتهرول ألوان البرق أمام عيني حميد وكأنها طيفٌ مرَّ مسرعاً. يمدّ حميد يده ليهرش جنبه فيشعر بالبلل قد زحف على جلبابه وجسمه متسللاً عبر الحصيرة، فيقف مسرعاً ويخطو ناحية الحجرة بخطوات حذرة، وهو يتحسّس موضع قدمه في كل خطوة، ويخلع شبشبه[1] البلاستيكي من الطين بصعوبة، ثم ينزع الطين اللزج من قدميه حتى يصل إلى باب الحجرة

١ الشبشب: الخفّ، "الشحّاطة" بلهجة بلاد الشام.

الخشبي الحافل بالثقوب. يدفع الباب برفقٍ، يدخل في حذرٍ، ينزع اللبدة والشال ويضعهما على ماجورٍ فخاري موضوع في ركن الحجرة، ثم يخلع جلبابه برفقٍ ويسنده على الماجور بحذرٍ، ثم يخلع الصديري المتهالك صدره ويخلع الفانيلة القطنية ذات الأكمام الطويلة والثقوب العديدة، ثم يخلع سرواله الأبيض الطويل الواسع، وبرومانسية يفتح ذراعيه على آخرهما ويضمّ شوال قمحٍ مسنود في ركن الحجرة بحبٍّ شديدٍ ويقول:

– أموت ولا تنامي زعلانة يا حبيبة قلبي.

في الناحية الأخرى من الحجرة تقول سنية، وهي تبتسم بأسنانٍ بيضاء جميلة تلمع في ظلمة الليل الشديدة كأنها نجوم صيفٍ، وتنام على لحاف ورديّ به ثقوب مفروش على الدكّة الخشبية الوحيدة المصنوعة من خشب السنط:

– أنا هنا يا سبعي هههههههههههههههه.

– طب مش تقولي يا سنسونة قلبي هههههههههههه.

يلعن حميد العشى الليلي الذي جعله يرى شوال القمح وكأنه سنية زوجته، ثم يخطو نحوها قوياً كأسدٍ ورقيقاً كفراشة ونشيطاً كمصارعٍ محترف، ويظلّ يلهث، والحمار في الرهبة ينهق، ثم يصعد، ويهبط، ويخبط، ويرزع لما يقرب من ساعة، ثم يتأوّه آهةً طويلةً تخرج من قلبه وتنتشر في فضاء القرية الغارقة في صمتها إلا من نقيق الضفادع وعواء الكلاب وصرير الحشرات. تتعجّب سنية من قدرته الجنسية الفائقة رغم أنها معتادة على ذلك، لكنها سرعان ما تتحسّر على هذه القدرة، خاصةً وأنها قدرةٌ غير فاعلة، بالضبط كعجلٍ قوي هائج

يظل يعتلي ظهور إناثه بمهارة ويقذف في بطونها سائله المقدس ذا الرائحة النفاذة، لكنّ هيجانه وصولاته وجولاته وسائله المقدس غير ذي جدوى، فهو لم يعمل على انتفاخ بطنها يوماً، ولم يمنع حيضها مرةً من النزول. يجفّف حميد عرقه بيديه، ويتحسّس الأرض بقدميه، ويمسك فانيلته ذات الأكمام الطويلة وسرواله الطويل والصديري المقطَّع، ويخرج من الحجرة وهو يتحسّس الجدار الطيني، ويمشي ناحية الطرمبة[1] اليدوية التي يحفظ مكانها وهو يتحسّس تراب الرهبة[2] الذي تحول إلى طين بفعل المطر. وعندما يصل إلى الطرمبة الحديدية الحمراء المزروعة في قلب الرهبة يتحسّسها بقدمه اليمنى ثم يضع يد الطرمبة الطويلة الممتدة كمفتاح السلّم الموسيقى بين أصبعي قدمه اليمنى الطويلين الخشنين ويضغط يد الطرمبة. تصدر الطرمبة صوتاً أشبه بالصفير النشاز، فيمطّ شفتيه ويعرف أنها تحتاج القليل من الماء حتى ترتوي أولاً ثم تمنحه بعد ذلك الماء الذي يريده، والماء في الزير، والزير أمام الحجرة، والحجرة تحتاج الرجوع، والبرد شديد. يزداد تساقط المطر على جسد حميد فينتبه حميد لذلك، وبسرعة يترك الطرمبة ويضع الفانيلة البيضاء والسروال الأبيض والصديري على جذع الجميزة ثم يخطو إلى وسط الرهبة ويفتح يديه إلى أعلى كخاشع يتضرّع إلى ربّه. تتجمّع المياة في يديه، يهيل الماء المتجمّع في يديه على رأسه، وهكذا يستحمّ بقطرات المطر الغزيرة بسعادة واستمتاع متجاهلاً الصقيع والبرد الشديد، فهو بحكم عمله كسقاء

١ الطُرْمُبَة: المضخة، وكانت توضع على فوهة البئر لضخّ الماء.

٢ الرهبة: الفناء المفتوح أمام الدار.

للقرية يرفض الاستحمام بالماء الساخن في الشتاء، ويستمتع به بارداً. وهكذا، يظل باستمتاع يفرد كفيه الكبيرتين لماء المطر، ويهيل الماء على رأسه مرات، ثم يملأ كفيه ويفتح صدره العريض وفمه وذراعية، ويهيل الماء عليه مرات حتى شعر بأنه قد تخلّص تماماً من رائحة عرقه الشديدة ورائحة منيه القوية النفّاذة، وعاد إلى مكانه أسفل الجميزة. ينزع نظارته، يضعها بجواره، يسند رأسه على القربة، يتغطّى بشال كشمير قديم أعطاه إياه أحد أغنياء القرية أثناء عودته من العراق، وبسرعة يغطّ في نوم عميق وهو يصدر شخيراً عالياً شيئاً فشيئاً يمتزج مع صوت زقزقة الزرزور فوق الجميزة، وصوت الكلاب حول الرهبة، وضجيج المتعبين والفقراء والمقهورين، وتمتمات العجائز اللاتي يسحرن وهنّ ينظرن إلى القمر... تختلط الأصوات وتمتزج في قريتنا، تماماً مثلما تختلط الألوان في عين مريض العشى الليلي في ليلةٍ شديدة الظلمة...

(٤)

تعود الشمس قويةً ساطعةً من خلف الجبل الشرقي فتظهر أعالي أشجار الصفصاف والجميز والنخل بجريده الشديد الخضرة، ثم يظهر ثلث الشمس من خلف الجبل حمراء قوية لا تتحملها العيون، ثم تظهر بيوت عزبة أبو عقل وأبو الشامات وهارمينا وبعض العزب الأخرى المحيطة بها، حيث معظم البيوت طينية يعلوها البوص الناشف، وهي متلاحمة ومتجاورة، فقط هناك فواصل بسيطة من الفراغ بين عزبةٍ وأخرى، لكن الجميع يلفّه الجبل العالي من الشرق كرجلٍ يلفّ حزاماً حول ظهره، وتحاصره الترعة الكبيرة من الغرب كرجلٍ يمسك بعصاه الخيزرانية بين يديه. ثم يظهر نصف الشمس فتظهر الضباع والذئاب والثعالب وهي تتجه ناحية الجبل معطيةً ظهرها لبيوتنا عائدةً إلى جحورها وبين أنيابها ما غنمت من فرائسنا المسكينة. ثم تظهر الشمس كاملةً فتشعر سنية بالدفء، وبسرعة تنزع نفسها من تحت اللحاف وتُدْخِل قدميها في حذائها البلاستيكي الأصفر وتخطو إلى الخارج بحذرٍ، وهي تمشي على طراطيف[١]

١ طراطيف: أطراف، رؤوس.

أصابعها وتتحسس موضع قدميها، وتمشي في الأماكن الأقل ماءً وطيناً. تمشي نشيطةً، وهي تعصب إيشارباً مزيناً بالورود حول شعرها المجعّد الكثيف، وما إن تصل إلى حميد، زوجها النائم، وهو يصدر شخيراً عالياً أسفل الجميزة في الخلاء ووسط ما تبقى من بقع الماء التي خلّفها المطر خلفه، حتى تسحب الشال عن جسده الضخم وتقول:

– قوم، الشمس طلعت.

يفتح حميد عينيه، يرى الشمس الزاهية قد غمرت المكان بنورها الفضي وانعكست على وجه سنية المتورد البشرة؛ هو يراه هكذا. يبتسم، ويقف، ويخطو حتى يصل الحجرة، يسحب عود ذرة يابس من أسفل السقف، وعلبة كبريت مبللة الأطراف من الحجرة، وعلبةً زجاجيةً فيها بعض السكر وأخرى فيها بعض الشاي من خلف الباب، يكسّر العود بذراعيه القويتين إلى أجزاء، وتحت الجدار الطيني يقرفص ويشعل النار بصعوبة شديدة من علبة الكبريت التي أصابها البلل بعد أن ينفخ فيها مرات بأنفاسه الدافئة، ثم يشطف الكنكة[1] من الزير المعلّق أمام باب الحجرة. يضع الكنكة على النار، وينظر إلى سنية الغاضبة. ينفخ في النار فيزداد اشتعالها، يبتسم، يسكب بعض حبات السكر والشاي في كفّ يده الخشنة الكبيرة ويضعها في الكنكة الصدئة، ثم ينفخ في النار حتى يزداد اشتعالها. وبعد قليل يغلي الشاي الأسود وترتفع فقاعاته الصفراء، فيصبّه في الكوب الزجاجي، ثم يمسك جزءاً من كعب بوص وينظفه مستخدماً جلبابه ويحرّك به

١ الكنكة: أو "التنكة"، وعاء للماء أو الزيت.

الشاي، ثم باستمتاع يرتشف الشاي بصوتٍ مرتفع وهو يأكل حبة جميزٍ من حبات الجميز المتساقطة في الرهبة بعد أنْ نزع عنها طينها وترابها. وقبل أن ينتهي من ارتشاف الشاي تكون سنية قد فكّت قيد الحمار العجوز ووضعت عليه المرشحة[1] القديمة المبلولة المصنوعة من قماش قديم، وجاءت إلى حميد وهي تجرّه خلفها وتقول في ابتسام:

– عايزة فلوس النهاردة.

– منين؟

تحكي له عن فريد ابن أخيه الذي ترك زوجته الشابة منى وأخته الخرساء صفية وسافر إلى ليبيا بعد أن دفع خمسة ألاف جنيهٍ لأحد سائقي الميكروباص الذين يهرّبون الناس للعمل في ليبيا ويهرّبون الحشيش المغربي والسلاح الإسرائيلي إلى صعيد مصر، وإنه قبل أن يكمل شهراً هناك أرسل سبع ورقات دولار، ووعد زوجته بالمزيد من أوراق الدولار الخضراء التي عرفت من السائق أنها تساوي مئات الجنيهات. علمت سنية، وكالعادة سال لعابها على الدولار، وبسرعة طلبت من حميد زوجها ضرورة أن يتخلى عن هذه القربة التعيسة التي أضاعت عمر أبيه هدراً، وسوف تضيِّع عمره هو كذلك، وهذا السطل اللعين الذي كان في الماضي علبة سردين أكلها السياح الذاهبون إلى جبلنا لمشاهدة روائع جدودنا ثم رموها، ولحظها التعس التقطها حميد السقا وصنع منها سطلاً، هو هذا السطل الذي يعيش معه حتى الآن. تطلب منه أن يترك القربة والسطل ويسافر مثل

١ المَرْشَحَة: قطع من القماش القديم تُخاط ببعضها وتوضع على ظهر الحمار.

فريد ابن أخيه إلى ليبيا ليعمل هناك ويرسل إليها الدولارات، فتبني البيت بالمسلح وتشتري تلفزيوناً ملوناً وتمتع عينيها بمشاهدة بشر مختلفين وعوالم مختلفة، عكس عالمها الذي تعيش فيه، وكذلك يرسل مراوح كهربائية. لكنه، وهو العاشق تراب قريته، يرفض كعادته عرضها ويتجاهل إلحاحها، ويركب حماره ويخطو مبتعداً عنها وهو يزيل المرارة التي احتلت فمه ولسانه بحبة سكر عثر عليها عالقةً بين شعر شنبه[1] الأبيض المدبب، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه...

يخرج من الرهبة متجهاً إلى طريق ترابي ضيق تحيط به البيوت الطينية والعشش التي تتكون من جدران من البوص وباب من البوص المحبوك بليف النخل الأحمر، ويظل ماشياً وهو يشم رائحة الزهور ممزوجةً برائحة الصابون الحلو. فاليوم صبيحة الجمعة، والنسوة هنا، بعدما فرغن من النوم مع أزواجهن وبعدما أرحن أرجلهن المرفوعة إلى السماء، صببن الماء الممزوج بالصابون المعطّر، أو الحلو كما يسمّونه هنا. يمشي وسط فلاحين وهو ينظر إليهم جيداً، وكأنه يعوّض بالنهار ما يُحرَم من رؤيته ليلاً، فيراهم يمسكون بالمناجل الحديدية ذات الأيدي الخشبية، وكذلك حبال الحشيش المصنوعة من الليف، وآخرين يجرُّون بعض الماعز السمين ذاهبين بها إلى السوق، وأخريات يحملن الطيور في قففٍ مصنوعةٍ من الخوص ويهرولن مسرعاتٍ إلى السوق، وآخرين يحملون ما سرقوه من الحقول فوق ظهورهم ويمشون مسرعين خوفاً من أن يراهم

١ الشنب: الشارب.

أحدٌ ويفتن عليهم[1]. يمشي حميد، وهو فوق ظهر حماره الضامر، وقربته على ظهره وسطله في يده، ينظر إلى الشمس الفضية، يحيّي الذاهبين إلى حقولهم أو العائدين في ابتسام، يتأمّل البوابات القديمة والجديدة والعالية والمنخفضة، ينظر إلى الأطفال الحفاة محدّقاً، ينظر إلى باعة البوظة والترمس والخضار الجوالين، إلى المتسولين، إلى الغجر والحِلَبْ[2] الذين أتوا من الجنوب بنسائهن المثيرات، إلى الأرض السمراء والجبل العالي حتى يتجاوز نقطة الشرطة المكونة من طابقين تحيط بهما أشجار النخيل البلدي والإفرنجي وقد أخرجت ثمارها الخضراء. النقطة تأخذ شكل السرايا، يُقال إن جد عائلة أبو الشامات تبرّع بها لتكون نقطة شرطة بعد أن أُلغي نظام العُمَد، كما أُلغي من قبله نظام حكم مشايخ العرب، واستُبدلت به نقاط شرطة يقبع فيها ضابط شرطة دائماً يكون غريباً وعصبياً ولا يعرف شيئاً عنّا. يأتون بالضابط من شمال الدنيا ليحكم بين الناس ونحن في جنوب جهنم، لكن حتى بعد مجيء ضابط وضابط وضابط وضابط ظل الحكم لعائلة أبو الشامات، خاصةً وأن مبنى نقطة الشرطة ملكهم، ويؤجّرونه سنوياً لوزارة الداخلية مقابل مبلغ من المال يرفضون أخذه، والضابط الذي يأتي يوفرون له المأكل والمواصلات، لهذا فهو يرضخ لهم وينفذ أوامرهم ويحكم بلسانهم. ثم يقترب حميد السقا من بيوت عزبة أبو الشامات المبنية من الطوب الأحمر، والتي يتقدمها دوار الوزير برهبته الواسعة جداً ودككه الخشبية الموجودة

١ يفتن عليهم: يخبّر عنهم.

٢ الحَلَبْ: مفردها "حلبي"، قبائل من الغجر.

تحت الجدران، والتي غُزل على مفارشها بخطٍّ سيئ "آل أبو الشامات"، ثم السرايا المكونة من طابقين يستقبلان شمس الصباح الدافئة الفضية القريبة من الرهبة، ثم البوابة، بوابة أبو الشامات، البوابة القديمة المزخرفة بطوب أسود وآخر بني وثالث أبيض ورابع أحمر، والتي تتّخذ شكل حدوة حصانٍ ترتكز على عمودين على شكل نخلة عفية، والتي يُقال إن أبو الشامات، جدهم الأول، بعد أن خان أهل قريته وتحالف مع الحكومة منحته الحكومة لقب بك وجعلته نائباً عن الخديوي في بلادنا. ولأنه لم يكن يمتلك بيتاً، أسرع وجلب بنّاءً ماهراً ليبني له السرايا. وبالفعل بنى له هذا البناء على هيئة سرايا ليس لها مثيلٌ في بلادنا، وعندما انتهى البنّاء من بنائها قتله ورماه في بحر النيل غرب قريتنا لكي لا يبني مثل بوّابته هذه لأحدٍ غيره مهما كان. يتقدّم حميد ناحية المَنْدَرَة[1] وكله ثقة بأنه سيقابل الوزير ويأخذ منه بعض المال لأنه الوحيد من الرجال في هذا المكان الذي يعطيه فلوساً. أما عن النساء، فحقيقة الأمر أن هناك سيدتين تعطيانه مالاً كثيراً، وبشكل يكاد أن يكون مستمراً، السيدة الأولى هي دلبهان زوجة المرحوم الحاج زعمان سيدة عزبة أبو عقل، والأخرى هي الست سارة أم هشام، خالة الوزير. لهذا يخطو حميد وهو يتمايل فوق حماره العجوز ولسان حاله يقول: آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه... لكنه هذه المرة يموسقها بموسيقى مفرحة وسعيدة.

يمرّ حميد وسط تجمّعٍ كبيرٍ من رجال وشباب وأطفال عائلة أبو الشامات بملامحهم البيضاء وعيونهم الخضر وبشرتهم التي تشي

١ المَنْدَرَة: المضافة.

بأنهم جاؤوا من الشام. يتذكر أن اليوم صباحية إحدى بناتهم فيفرح كثيراً، وبرشاقة شابٍّ في العشرين من عمره يقفز عن ظهر حماره، يقيّد الحمار بسرعة، يمسك السطل، ينظّف السطل بكمّ جلبابه، يفكّ الحبل الذي يربط فم القربة، يصبّ بعض ماء القربة على هيئة بزبوز[1] في السطل، يمرّ عليهم واحداً واحداً، مِنَ الحاضرين مَنْ يأخذ ويشرب، مثل دوح بن الحاج زعمان الذي كان يجلس مع بعض الشباب يدخنون سجائر الحشيش الملفوفة أسفل نافذة خضراء طويلة تفتح على الرهبة، ومنهم من يتجاهله مثل مرسي أبو كرسي وعمه حمدون، وهما داخلان إلى عمق الدوار عبر سلّم رخامي يصل السرايا بالرهبة. تقترب الساعة من التاسعة ويزداد دفءُ الشمس وسطوعها واقترابها من رؤوس الجالسين ويتصاعد قلق الحاضرين، فهذا موعد ذهابهم إلى بيت بنتهم الجديد. يلاحظ حميد أثناء مروره عليهم أن أكابر عائلة أبو الشامات كلهم موجودون، يدخنون السجائر المستوردة ويشربون القهوة والشاي الخفيف، على عكس غالبية سكان قريتنا الذين يشربون الشاي ثقيلاً لونه أسود وطعمه حلو. الحاج فتوح حمودة أبو الشامات، عضو مجلس الشعب السابق، بجسده الضخم كالفيل، يجلس متصدّراً الجلسة، بجواره الحاج عاصي بجسده الأبيض النحيل وعصاه الأنيقة، والحاج خزام بطوله الفارع، وشباب الجيل الثاني للعائلة يتقدمهم العمدة زيدان ابن الحاج فتوح وأخواه عمرو ومحمدين ضابطا الشرطة أبناء الحاج فتوح، بالإضافة إلى حامد وأبو زيد أبناء الحاج عاصي ووائل ابن الحاج

١ بزبوز القربة: فمها.

خزام، وطبعاً بعض كبار وشباب العائلات الأخرى، وهم يدخنون مثل مرسي وعمه حمدون نسيب الحاج خزام ودوح ابن المرحوم الحاج زعمان الذي انتهى من تدخين الحشيش وجاء لينضمّ إليهم ويستمتع بحكايات الحاج فتوح عن نساء مصر اللاتي يشبهن الملبن وتخلو أجسامهن الطرية من العظم...

يمرّ حميد أمامهم وهو يصبّ الماء من القربة في السطل، لكنه يندهش عندما يرى كل هؤلاء الكبراء، ويعرف أن الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف صباحاً وأن الشمس قد غمرت المكان تماماً واقتربت من رؤوس الحاضرين، ورغم ذلك اعتذر الجميع، بما في ذلك الحاج فتوح، عن إعطاء أمرٍ للحاضرين بالتحرك. وكلّما سأل سائلٌ عن موعد التحرك، خاصةً وأن بيت العريس في قريةٍ مجاورة تبعد عن دوار أبو الشامات أكثر من خمسة كيلومتراً سيقطعونها مشياً على الأقدام وفي طريق ترابي ضيق، تكون الإجابة:

– لمَّا يجي الوزير!!

(٥)

يحكي الحاضرون عن ثورة الخامس والعشرين من يناير، وعن مبارك والثوار والحزب الوطني، وعن الوجوه الملتحية التي ظهرت بكثرة بعد الثورة في قرانا يتزعمهم الشيخ عميرة ابن عم الوزير من بعيد، والذي ترك له أبوه فدانين، وبدلاً من أن يزرعهما، ويستغل وقت فراغه في العمل فيهما، قام بتأجيرهما ثم أطلق لحيته وانشغل بتجميلها والعناية بها وبالجلباب الأبيض القصير الغريب عن عيوننا وأرواحنا وعاداتنا، ثم انشغل باستقطاب بعض الفقراء والمساكين والمغلوبين على أمرهم والمأزومين نفسياً وعصبياً، وأقنعهم بإطلاق لحاهم وارتداء الجلاليب البيضاء القصيرة، والتخلي عن مظاهر الكفر التي يمارسونها. ثم يحكي لهم عن ثعابين النار الضخمة وعن تماسيح القبور، ثم يرقّ ويصف لهم حوريات وخموراً وفاكهة ونعيم الجنة التي تنتظرهم. ولأنهم يعشقون النساء الجميلات ولا يقدرون على الزواج يستسلمون له. ثم يأخذهم إلى مساحة صغيرة على الترعة كنّسها ورشّها بالماء ووضع فيها حصيراً من الحلفا، وفوق الحصير يتّخذ وضع المعلم ويصرخ ويبكي على الإسلام الذي ضاع، ثم

يسبّ ويلعن الملوك والرؤساء الخونة والعملاء، ثم يؤمّهم في الصلاة، وبذلك يكوّن فريقاً يقوده، ويكون مركز ثقل مثل الوزير، وربما أكثر. وإذا كان الوزير قد بنى مجده ومركز ثقله بالمال وبالقرب من رجال السلطة والشرطة، فإن الشيخ عميرة أبو الشامات قد بنى مجده معتمداً على الدين، وما أدراك ما الاعتماد على الدين في قرى يحاصرها الجهل والفقر مثل قرانا. ثم يتحدثون عن انتخابات مجلس الشعب التي صارت على الأبواب، ويتساءلون:

هل سيرشح الحاج فتوح نفسه مرة أخرى، وهو الذي سبق وكان عضواً في مجلس الشعب دورتين كاملتين كنائبٍ عن الحزب الوطني المنحل، استطاع خلالهما أن يكوّن ثروةً رهيبةً من الرشى ومن تجارة السلاح وتجارة الآثار، وأن يلتقط صورةً مع الرئيس المخلوع حسني مبارك كان يتباهى بها كل أفراد عائلة أبو الشامات، منهم من جعلها واجهة لموبايله، ومنهم من علّقها في مدخل مندرته، ومنهم من لصقها على زجاج نافذة سيارته الأمامي، حتى قامت الثورة، وخرج ملايين الناس غاضبين، وسقط مبارك، وسارع الجميع إلى إخفاء الصورة... هل بعد كل ذلك سيرشّح الحاج فتوح نفسه أم أنه سيرشِّح ابنه الأكبر العمدة زيدان حسب رغبة الشباب وحسب رأي العقلاء؟ البعض يؤكد أن شعبية الحاج فتوح مازالت كما هي، وأن أهل قرانا لم يسمعوا بعد عن الثورة ولم تصل حتى الآن إليهم، والبعض الآخر يؤكّد في استحياء على أن قواعد اللعبة قد تغيّرت، وبذلك يجب أن تغيِّر العائلة اللاعبين حتى تحافظ على مقعدها في البرلمان. لكن الحاج فتوح يأخذ نفساً من سيجارته المستوردة

وينفخه في حرقة، وهو يحكّ أصبعيه اللذين تخدّرا من تقطيع الأفيون خلال فترة عضويته في مجلس الشعب وقبلها بقليل، وصار لونهما أصفر من كثرة التدخين، وصارا أيضاً مخدّرين من كثرة احتكاكهما بالأفيون. ويؤكّد للجميع أنه سوف يترشح، وسوف ينجح، ولن يترك كرسي البرلمان لأي عائلة أخرى مهما كانت مكانتها!! فهو، حسب قوله، له شعبية، وله صداقات وخدمات وأفضال، ويتّسم بخفة الدم والقدرة على الاختراق والإضحاك وصنع الصداقات، وخاصةً مع رجال السلطة، فهو الوحيد الذي كان يُضحك الرئيس مبارك عندما يذهب ليلتقي أعضاء مجلس الشعب...

ينتهي حميد من سقاية الناس الجالسين في المندرة أو أمامها أو حتى في الركن، وهم يدخّنون الحشيش ويلمّعون بنادقهم بالمناديل الورقية المعطّرة، ثم يجلس سانداً ظهره إلى حائط الدوّار الطيني العريق، وهو يتأمل رجال وشباب أبو الشامات وهم يدخنون ويشربون الشاي الثقيل المغلي، ويملأون خزائن بنادقهم الآلية والكلاشينكوف والجرينوف بالرصاص. وفجأةً يقف الجميع، وتهجّ العصافير، ويطير مفزوعاً وخائفاً بعض الإوز والدجاج السارح في الرهبة. ينظر حميد ناحية البوابة، يرى الوزير بجلبابه البني الأنيق، وقفطانه الأبيض، وشعره الأصفر الناعم، وساعته الذهبية، وصدره العريض الذي يغطيه الشعر الأسود، وبشرته البيضاء، وسلسلة مفاتيحه، وتليفونه المحمول الحديث وهو يهتز في يده ويضيء ويظلم، بينما هو غير مكترثٍ به، يضيء التليفون المحمول ويظلم دون اهتمام من الوزير. يمشي الوزير ابن الخامسة والثلاثين من عمره وخلفه أمه بملامح تنمّ عن طيب

الأصل والمنبت والثراء وهي ترتدي ثوباً من القطيفة السوداء، ويكاد الذهب أن يغطيها من الرأس حتى القدمين، حيث الحجل الذهبي، وعلى الصدر كردان[1] ذهبي فرعوني له إحدى وعشرون حلقة تتدلى على ثدييها الكبيرين المترهلين، وبجوارها أختها سارة أم هشام، خالة الوزير، التي تشبهها تماماً، ولكنها تبدو أصغر منها بسنوات، وخلفهما زوجته الثانية فيفي، بأنوثتها الصارخة وأعضائها المكتنزة الفائرة المتمردة على فستانٍ حريري أزرق ناعم، كملمس بشرتها، منقوش بالورد الأبيض، نجح في إظهار بياض بشرتها، وهي تمسك بيد طفلين صغيرين جميلين يرتديان بدلتي عرس أنيقتين، والذهب في يديها وعنقها وأذنيها يصدر خشولة[2]، وخلفها زوجته الأولى أحلام برومنسيتها الحالمة الهادئة الجميلة الممزوجة ببعض الحزن الجميل، ورقتها، وعودها النحيف في رقة، وبشرتها الحافلة بالنمش الجميل، وقرط ذهبي رقيق، ليس كبيراً ولكنه جميلٌ، وسلسلة ذهبية على هيئة مصحف، وبعض الغوايش[3] في اليدين، وخلفهن بنات عمهن الحاج خزام بسمرتهن وعودهن الفارع، تتقدمهن ميرفت زوجة حمدون عم مرسي أبو كرسي، ثم بعض زوجات أعمامهن، وسلمى، زوجة وائل ابن الحاج خزام، وهي تحمل طفلة سمراء وتجرّ ثلاث طفلاتٍ خلفها...

يتوقف حميد عن توزيع الماء من قربته، ويقف جميع الحاضرين.

---

١ الكردان: عقد من الحليّ فيه حلقات وليرات.

٢ خشولة: رنين وخشخشة.

٣ الغوايش: الأساور.

يهزّ الوزير كتفيه مرتين متتاليتين كعادته ثم يقول في كبرياء وهو يخطو إلى الأمام:

– يالله بينا يا رجالة.

يقف الجميع، ويخرج الأكابر من المندرة يتقدمهم الحاج فتوح والحاج عاصي والحاج خزام، وعلى سلّم المندرة يقفون، ينظرون ناحية بوابة الدوار وهم يستندون على عصيّهم المعوجّة حيث يقف الوزير. يخطو الوزير إلى الخارج. يتحرك الجميع إلى الأمام. يخطو أبوه الحاج عاصي وعمه عضو مجلس الشعب السابق الحاج فتوح والحاج خزام وزيدان، ثم يخطو الجميع خلف الوزير: الرجال ببنادقهم الآلية وشيلان الكشمير حول الرؤوس والأعناق، ثم الشباب بالكلاشينكوف والجرينوف والآلي، ثم الأطفال وهم يقلدون الشباب والرجال، ثم النساء تتقدمهن أم الوزير وفيفي، وفي المؤخرة بعض العبيد ببشرتهم السمراء يتقدمهم عدلي عبد السيد، وهو يسحب عجلاً كبيراً خلفه، وزوجته أشجان، وأمه السمراء، وأخته الشديدة السمرة، وخلفهم يخطو حميد السقا على حماره وسط التراب الذي تثيره أقدامهم وهو يتمايل بظهره على الحمار في إيقاع منتظم، آآآه آآآه آآآه آآآه آآآه...

يستنشق حميد رائحة العطورالجميلة التي تنبعث من نساء عائلة أبو الشامات، ويستمتع بألوان بشرتهن وملابسهن وزينتهن، إلى درجة أنه يفتح فمه إلى آخره، وعينيه إلى آخرهما، وفيما يبدو أنه الآن يشعر بالرغبة في شرب الألوان التي يحرم منها ليلاً أو وقت الظلمة الشديدة التي دائماً ما تحاصره...

(٦)

تفرغ رهبة عائلة أبو الشامات من الرجال والنساء والطير والحيوان. لكن على مقربة منها، وأمام بيت هشام عبد المنعم برعي، أو بالأدق أمام سراية برعي بك رحمه الله، يبدأ شباب السُّنية[١] في التجمع. في البداية يأتي قائدهم الشيخ عميرة بخطواته المضطربة السريعة – وكأنه يتشاجر مع الأرض – وابتسامته المجانية، ثم الشيخ قناوي بسمرته القوية التي تشي بأن جده كان عبداً لأبو الشامات الكبير، ثم يأتي عبد الهادي الغريب عن القرية الذي كلما غضب رجل من أعيان القرية يقسم عليه ألا يبيت في البلد، فيخرج منكسراً ويبيت فعلاً خارجها، ثم يأتي هشام بسنواته التي لم تتجاوز العشرين، عيناه خضراوان، فهو حفيد برعي بك ابن أبو الشامات الكبير. كل من يرى هشاماً من الرجال المسنين يؤكد أنه يشبه أبو الشامات الكبير نفسه، فهو قصير مثله، نحيف وأبيض البشرة، عيناه خضراوان، شعره أصفر مثله، لكن هشاماً هذا يختلف عن كل شباب ورجال أبو الشامات في أنه طيب القلب، عطوف، لهذا كثيراً ما يفضّل أن يمشي في القرية بدون نقود

١ شباب السُّنِّية: الشباب الذين ينتمون إلى التيارات الدينية المتطرفة.

على أن يذهب إلى مستودع البوتاجاز[1] الذي يملكونه ويقف أمامه ممسكاً بالبندقية الآلية ومحمّراً عينيه في وجوه أهل القرية، مثل غالبية شباب أبو الشامات الذين يستلمون أنابيب البوتاجاز مدعومةً من الحكومة، وتحت ضغط الحاجة والفقر والخوف وأزمة البوتاجاز يبيعونها بسعر السوق السوداء، أي أن الأنبوبة التي لا يزيد سعرها على خمسة جنيهات كانت بأوامر الوزير تُباع بثلاثين جنيهاً. حتى بعد أن تمّ وضع نظام البونات[2] وقررت الحكومة تطبيقه في قريتنا، تحايل الوزير على هذا النظام وعقد صفقةً مع موظفي التموين مكّنته من الاستمرار في بيع الأنابيب في السوق السوداء. لكنّ هشاماً ذهب ذات مرة، على سبيل التجربة، إلى مستودع البوتاجاز ووقف بجوار أبناء عمه وباع وأخذ الثمن، وركل رجلاً فقيراً من عامة الناس بدبشك[3] البندقية وسبّ آخر، وتحرّش بامرأة فقيرة مكسورة الجناح، وصفع رجلاً آخر في الخمسين من عمره على وجهه وشتمه. لكنه عندما رجع ووضع رأسه على المخدة وبدأ يسأل نفسه عمّا حدث، ما هي إلا لحظات حتى لام نفسه ودمعت عيناه ومزّق نصيبه من المال وندم ندماً كبيراً، فهو طيب القلب وهم قساة، وهو حنون وهم غلاظ الأكباد، وهو لا يحب ظلم الأخرين وهم ظالمون. وطبعاً في اليوم التالي رفض الذهاب إلى المستودع. سأله الوزير عن السبب، فردّ بأن ما يفعلونه لا يليق بهم، ولا يليق بأكابر القرية. هزأ الوزير

١ البوتاجاز: وابور الكاز أو الغاز، والمقصود هنا أنابيب الغاز.

٢ البونات: القسائم.

٣ دبشك البندقية: أخمص البندقية.

منه ونغزه في صدره بطرف عصا خيزران تتراقص في يده جعلت الواقفين يضحكون على هشام إلا عميرة الذي فور أن انصرف الوزير اقترب من هشام ولاطفه وأيّد كلامه وناصره. ومن يومها وهشام صار ملازماً لعميرة، يجلس معه، يستمع إلى نصائحه، يصلّي خلفه، يرتدي جلباباً قصيراً مثله، يتحدث بلغة عربية فصحى مقعّرة ولكنها غير منضبطة في النحو مثله، وأخيراً أطلق لحيةً شعرها كثيف، طبعاً مثل الشيخ عميرة...

يسأل حميد نفسه لماذا يقود الوزير أهله وهو أصغرهم سناً، وكيف يتقدم على الحاج فتوح عضو مجلس الشعب السابق؟! ويتذكر كلاماً يتداوله خبثاء القرية سراً خلاصته أنّ الوزير خلال السنوات التي مضت تمكّن من تسجيل مكالماتٍ للحاج فتوح وهو يعقد صفقة سلاح سينقلها في سيارته المرسيدس الفارهة المحصّنة بشعار مجلس الشعب من حلوان إلى البداري، وكذلك التسجيل له وهو يقبض ثلاثين مليوناً من مسؤولٍ كبيرٍ في الحزب الوطني ثمن أربعة تماثيلٍ فرعونية باعه إياها، وكذلك التسجيل الأهم الذي إذا سمعته ستكتشف أن الوزير المحافظ طلب من الحاج فتوح أن يأخذ بعض الرجال والشباب ويذهب بهم ليلاً إلى قرية هارمينا التي كُتِب على جبين أهلها منذ زمنٍ طويلٍ الخوفُ ليقتل من يجده فيها وينشر الرعب بين أهلها. وبالفعل يذهب الوزير ومعه رجاله من شباب أبو الشامات، وعندما يصلون إلى ورشة النجارة المجاورة للكنيسة يطلقون النار بشكلٍ عشوائي حتى قتلوا سبعة رجالٍ وهم يعملون في ورشة نجارة، وأطفالاً كانوا يكنسون أمام بيوتهم، ونساء أبرياء كنّ يخمّرن العيش

الشمسي أمام بيوتهن؛ قتلوهم لأن مدير أمن أسيوط، صديق الوزير، طلب من الحاج فتوح أن يفعل ذلك ليكسر هيبة مأمور مركز شرطة البداري الذي بدأ نجمه بالسطوع، وليشوشر[1] عليه وعلى سمعته في الوزارة كي لا يأخذ منصبه كما كان يظن...

يمشون في كبرياء، أنوفهم في السماء، يتصاعد التراب. يمشون، ويتباهى الشباب بالكلاشينكوف والجرينوف والآلي، التي تتدلى من أعناقهم. يمشون، وتحمل النسوة أطفالهن على صدورهن. يمشون متجاوزين بيوتهم وبيوت عائلة أبوعقل عدوهم العنيد ومنافسهم القديم. يمشون، ويتجاوزون القبور الطينية المتناثرة فوق التل. يمشون في طريق، إلى يمينهم ترعة كبيرة يصطفّ على ضفتيها الصفصاف والنخيل والموز والمانجة والتين والجوافة والليمون، وإلى يسارهم حقول القمح. وكل من يراهم يحيِّيهم باحترام، وتتسع عيناه إعجاباً بكثرتهم، لكن في قرارة نفسه يلوم هذه العائلةَ الكبيرة التي قبلت هذه الأيام أن تزوّج بناتها لشبابٍ من عائلاتٍ وضيعة استطاعت بفضل السفر إلى الخارج أن تجلبَ ثرواتٍ هائلةً، وآخرَ هذه الزيجات زيجة بنت الحاج خزام الصغرى من الجميل ابن المزيّن، بما لهذه المهنة من وضعٍ حقيرٍ في قريتنا، وبما لهذا العريس من أصلٍ حقيرٍ. يعرف الجميعُ أن الوزير أخذ لنفسه من العريس مائة ألفٍ جنيهٍ مقابل الموافقة، وطبعاً دفع العريس وهو في غاية السرور. انتهت الزروع الخضراء، وظهر الجبل القبلي الأصفر عالياً وقريباً، وبسرعة وجدنا أهل العريس، بملامحهم الصفراء وأبدانهم

١ يشوشر: يشوّش.

النحيلة وعيونهم الصفراء، وقد حاولوا إخفاء ذلك بشيلان الكشمير الجديدة والجلاليب الجديدة التي يلفّون وجوههم الصفراء الشاحبة بها، يهرولون في سعادة، يمسكون علب السجائر المستوردة التي لا يعرفون أسماءها، يسلّمون بترحابٍ شديدٍ وهم يوشكون أن يحملوا رجال وشباب أبو الشامات على أعناقهم. يطلق شباب أبو الشامات أعيرةً كثيفةً ومتتابعةً تصم الآذان وتغطّي على أي صوتٍ دونها، ثم يجلس الرجال والشباب في المندرة وأمامها. تدخل النسوة من بوابة البيت المشيّد حديثاً. يتزاحم المزيّنون أمام الرجال في طابورٍ طويلٍ، يضعون السجائر المستوردة بجوار كلِّ واحدٍ من ضيوفهم في سعادةٍ على الدكّة الخشبية التي يجلس عليها، يحضرون الشيَّش[1] والشاي، وهم يرقصون من الفرحة. يوشك العريس وأهله أن يقبّلوا حذاء الوزير. يقف الوزير، يخرج ألف جنيه من جيب القفطان الأبيض ويفتتح النقوط[2]. يصيح الرجل الذي يجمع النقوط من الناس:

– والوزير عقبال عنده.

يردّد المزيّنون جميعهم بصوتٍ واحد:

– الوزير عقبال عنده.

تنهال الأعيرة كثيفةً ومتتابعةً من شباب ورجال أبو الشامات تحيةً لعروسهم. يأخذ العريس سيده الوزير إلى حجرة الطعام، ومعه الحاج فتوح والحاج عاصي والحاج خزام والعمدة زيدان، يدخلون المندرة، يجدون كميات لحمٍ محمّرةٍ كبيرةٍ جداً وفاصولياء وملوخية

---

١ الشيشة: النرجيلة أو "الأركيلة".

٢ النقوط: هبات مالية تُدفع للعرسان.

خضراء وبامية بالثوم ورزّاً وخبزاً بلدياً صُنِعَ من القمح، وآخر من الطابونة، تنتظرهم. يجلسون في كبرياء ويأكلون في تأفّفٍ، ثم يحضر العريس بنفسه الماء الساخن والطشت[1] والصابونة اللوكس التي اشتراها لهم خصيصاً والفوطة الجديدة، يصبّ لهم الماء ويجفّف لهم أيديهم بنفسه بحجر جلبابه الأبيض. ومن بابٍ ضيقٍ يوصل إلى البيت يدخل الوزير وشباب العائلة على العروسة بنت عمهم الحاج خزام، يجد نساء وفتيات وأطفالاً، يخرج طبنجته[2] من تحت إبطه، يُفْرِغ تسع طلقاتٍ متتابعاتٍ مرةً واحدةً، يتزاحم الأطفال الصغار عند قدميه لأخذ الطلقات الفارغة، تزغرد النسوة، يخطو ناحية العروسة، التي تجلس على كرسي خيزران وتلبس رومية[3] بيضاء تلمع يغطيها الذهب، وحولها النساء والفتيات والأولاد، وبيدها حقيبةٌ تفيض بالنقود، يسلّم على العروسة، يضع سلسلةً ذهبيةً كبيرة حول عنقها الأسود الناحل، تزغرد النسوة. خلفه يتقدّم أبناء عمه الواحد تلو الأخر، هذا يقدّم للعروسة خاتماً، والنساء يزغردن، وهذا يقدّم إنسيالاً[4]، والنساء يزغردن، وهذا يقدم قرطاً ذهبياً، والنساء يزغردن. يلوّح الوزير للجميع بيده كنجوم السينما، يمرّ بين النساء، تسارع نساء العريس إلى تقبيل يديه، يلمح فيفي، التي تجلس كملكةٍ على كرسي العرش بجوار العروسة، وأمه وخالته سارة وأحلام وميرفت

١ الطشت: الطست.

٢ الطبنجة: نوع من المسدسات القديمة.

٣ الرُّومِية: نوع من الملابس، ناعم جداً، ترتديه الفتيات في الأعراس.

٤ الإنسيال: نوع من الأساور الذهبية.

بنت عمه خزام، وكل واحدة منهن تمسك طبقاً ممتلئاً باللحم، يبتسم فتبتسم، لكنه يلاحظ أن أخاه الأصغر أبو زيد الذي يقف مستنداً على الحائط وبيده كلاشينكوف، ينظر إلى زوجته فيفي في غيظٍ وغضبٍ شديدين، يتجاهل الوزير أخاه الأصغر ويخطو خارجاً، لكنه يلمح خالته سارة تشير إليه، يذهب إليها، يعانقها ويقبّلها، فيلمح في عينيها عتاباً، فيبتسم ويقول لها في استفهام:

- أنتِ زعلانة مني؟

- وإيه الجديد يعني؟

- ولدك قلبه حنيّن وكان لازمن أقرص عليه؟

- الخوف لا يسيبك أنت وولد عمه ويمشي ف سكة تانية.

- سكة إيه بس؟

- أنا عارفة؟!

يحكي الوزير لخالته سارة عن برعي بك أبو الشامات جدهم الكبير الذي كان يجبر الناس كلهم هنا على المشي فوق الشوك وهم حفاة ثم يأمرهم بدرسه وتقطيعه إلى قطع أصغر؛ جدهم الذي إن سمع الناس صوت حماره في أول القرية وهم في أخرها وكانوا جالسين أسرعوا بالوقوف؛ جدهم الذي كان يقف أمام بيته الكبير والصغير بالساعات الطوال في طوابير ليدفعوا ضريبة الأرض. يذكّرها بهذه الأشياء ثم يطلب منها أن تترك له ابنها هشاماً، وهو سيُكسبه الصلابة المطلوبة، ثم يسلّم عليها، تقبّل يده، يخرج تاركاً حميد السقا يتجول وسط النساء وقربته على ظهره وسطله في يده وفوطته على كتفه، يداعب هذه ويضحك مع تلك ويتشاجر مع امرأة بخيلة، ويأخذ

من هذه عشرة جنيهات ومن تلك عشرين جنيهاً ومن هذه خمسة جنيهات ومن أم العريس إوزة ومن أخته زوج حمام، وعندما يكون بمحاذاته يصيح حميد:

– والوزير بينقّط السقا.

يُخرج الوزير أموالاً ورقية كثيرة، يسحب منها مائة جنية، يعطيها لحميد. يصيح حميد بصوته النشاز الأجش في سعادة بالغة:

– عقبال فرح ولادك يا وزير، الفاتحة للوزير.

يخرج الوزير، ويخرج خلفه الرجال والشباب والنساء والأطفال، وعندما يصلون إلى رهبتهم، رهبة أبو الشامات، ينصرف الرجال والشباب والأطفال والنساء، ويتقدم الوزير حاملاً ابنه الأصغر بين ذراعيه وخلفه زوجته فيفي تجرّ الابن الأكبر، ثم خالته سارة، ثم أمه وهي تستند على كتف زوجته الثانية أحلام. يفاجَأ الوزير بأخيه الأصغر أبو زيد بملامح صارمة وبندقيته تتدلى من كتفه وتليفونه المحمول في يده. يعترض أبو زيد طريق فيفي ويمنعها من دخول الدوار وهو يقول لها في حزم:

– على بيت أبوكي.

– إيه اللي بتعمله ده؟!

– دي ماتدخلش الدوُّار ده تاني.

– أنت بتقول إيه؟

– على بيت أبوكي.

– فيه إيه يا أبو زيد؟

– دي فضحتنا ولا يمكن تعتِّب برجلها باب الدوارده تاني.

– إيه اللي بتقوله ده؟!

– بأقولك فضحتنا ومش هاتعتّب الدوار تاني...

يرى حميد ويسمع ما دار بين أبو زيد والوزير، ويدرك أنّ شيئاً خطيراً قد حدث، فهو طوال عمره لم يرَ أحداً يكلّم الوزير بهذا الشكل، بل ويمنع زوجته التي يعشقها عشقاً تعجزالكلمات عن وصفه من دخول بيتها. لكن الوزير يلتفت يساراً ويرى حميداً واقفاً. ينتبه حميد إلى ذلك فيهزّ ساقيه على بطن حماره الضامر العجوز ويحثه على المشي بسرعة. ينصرف حميد ويمشي مبتعداً عن الرهبة، لكنه يريد معرفة ما الذي حدث؟ وما الذي جعل أبو زيد يمنع زوجة أخيه الوزير من دخول دوار أبو الشامات؟!!

(٧)

في الظهيرة، حيث الشمس الحارقة، تكون سارة أم هشام قد عادت مع النسوة من الفرح بجسدٍ منهك وعرقٍ غزيرٍ يسيل على خدودها التي تشرّبت بالحمرة الجميلة، لكنها لم تعد إلى بيتها بل ذهبت إلى دوار الحاج زعمان أبو عقل وأخيه الطريح الفراش عبده وزوجته شامية بنت عمها. وبعد القبل والأحضان والكلام عن ممارسة كل واحدة منهما الجنس مع زوجها ليلة أمس، والضحك من القلب، وشرب الشاي والقهوة والعصائر، وتبادل قمصان النوم المثيرة، ثم الكلام عن هشام الذي كبر ونبت شعر شاربه ولحيته، ثم الحديث عن ضرورة أن تبحث له سارة عن عروس جميلة وبنت عائلة عريقة، ثم الحديث عن عبده وتماثله للشفاء شيئاً فشيئاً لدرجة أنه عاد يمارس الجنس مع شامية على حدّ قول شامية التي تحرص على ألاّ تُشمِّت أحداً بها حتى ولو كانت قريبتها سارة. ثم تذهب سارة إلى الحاجة دلبهان زوجة الحاج زعمان، واستقبال دلبهان الحافل لسارة، وإعجاب سارة بتصرفات دلبهان التي تصرّ حتى الآن على أن يكون لديها خدمٌ وحشم، وتصرّ على أن تظهر بمظهرٍ يليق بزوجة الحاج

زعمان، كبير عائلة أبو عقل، رغم التدهور الذي حدث له ولمنزلته في القرية ولمكانته في العائلة. تعرف سارة أن دلبهان مغرمةٌ بتقليدها لجدتها الأولى راضية، ولهذا تصرّ على وجود خدمٍ وحشمٍ، وبوابةٍ عاليةٍ ودوارٍ، ومجوهراتٍ فرعونيةٍ في الخروج، وبغددةٍ في مساعدة الفقراء والمتسولين والحلّب والغجر الجوالين في بلاد الله. تظل سارة تحكي لدلبهان وبنت عمها شامية حتى يُؤَذَّن لصلاة الظهر، فتلملم ثوبها وتسحب حذاءها الجلدي الجميل وتعدّل طرحتها السوداء وتسارع بالانصراف، لكن دلبهان تقسم بحياة جدتها الغالية وتصرّ على بقائها بعض الوقت حتى يتناولوا طعام الغداء معاً. وقبل أن يأتي الخدم بالغداء يأتي دوح بشاله وسيجارته المشتعلة وعصاه الخيزران التي تتراقص في يده، يقبّل يد أمه ويسلّم على خالته سارة، ثم يطوّح شاله على كتفه ويمرجح عصاه الخيزران في الهواء، ويحكي معطياً كل حرفٍ حقه في الكلام وكأنه يتذوق الحروف والكلمات والجمل: يحكي عن هشام ابنها الذي بدأ يكبر وبدأ يتعلم الشقاوة، وبدأ يمشي مع الرجال والشبان ويخرج معهم ليلاً، ويسطو على السماد المخزَّن في الشون كالشبّان الأشقياء. تتعجب سارة ودلبهان وشامية ويضحكن من قلوبهن غير مصدّقاتٍ ما سمعنه من دوح، فهشام الرقيق اللطيف لا يمكن أن يفعل مثل هذه الأفعال الحقيرة، هكذا تقول أمه. يضحك دوح ويعدهن بأن يحضره إليهن متلبّساً خلال الأيام القادمة، ثم يضحك ويخطو بسرعة خارجاً من الدوار. تشعر سارة بالخجل والكسوف. تقول لها شامية إن ما فعله ولدها هشام ما هو إلا سباعة وشجاعة ورجولة، وتحثّها على تشجيعه بأن

يستمر في هذه الأفعال لكي يحسب له أهل القرية ألف حساب. لكنّ سارة التي تحب هشام الحسّاس المهذّب الودود تضحك وتقول لشامية:

– خليه كده، أنا ماعايزاش سباعة...

بتوترٍ شديد، وهو يجفّف عرقه الغزير على جبينه وخدّيه وعنقه، يهزّ الوزير كتفيه ثم يُنزِل طفله الصغير على الأرض، يأخذ نفساً طويلاً ثم يشدّ بغضب التليفون المحمول من يد أخيه أبو زيد، ويشير لأحلام بما معناه أن تأخذ أمه وتدخل. تمشي أحلام وهي تسند أم الوزير بسمنتها الواضحة، ولسانها يدعو بالستر، فروحها الشفافة أدركت أنّ شيئاً خطيراً قد حدث. يضغط الوزير على زر تشغيل التليفون المحمول، يسمع صوت فيفي زوجته وهي تتحدث برقّةٍ وأنوثة طاغيةٍ بصوتٍ عارٍ وخليعٍ مع شابٍّ رومانسي يبثّها أشواقه وتبادله نفس الشوق، يذكّرها بمواقف جميلة عاشاها معاً منذ كانا طالبين في مدرسة عزبة الزهري الثانوية التجارية آخر عزب أسيوط من ناحية الجنوب الشرقي. تزداد رقة صوتها وميوعتها وتعترف له بأنها الآن تشعر بالندم على عدم زواجها منه، وعلى ضياع عمرها من دون أن تكون معه. يسألها عن اهتمام زوجها الوزير بها فتخبره بأنه لا يقربها بالشهر والشهرين، وإذا اقترب منها فإنه يقضي حاجته في ما لا يزيد عن خمس دقائق. تقول له إنه مجرد أن يرى ثدييها وبعض مفاتنها يقذف ما في جوفه من شهوة في جوفها، وأحياناً لا ينتظر ويقذف ما في جوفه على ساقيها أو

فوق قميص النوم، وأحياناً يقذفه على طرف ملاءة السرير الحمراء، ثم تقول إنه بعد ذلك يدعك يديه ببعضهما في رضا تام ويحمد الله كثيراً، ثم تضحك بصوتٍ مثير قادر على إثارة رجال دولةٍ كبرى، فيضحك رامي عبر التليفون. تعترف له بأنها تشعر بالغربة وهي بعيدة عنه، وتشعر بالعطش الشديد عندما لا تراه. ثم يسألها بصوت هامسٍ رقيقٍ ماذا تلبس، فتجيب بلهجة مثيرةٍ وناعمة وكلها أنوثةٌ وشبقٌ، إنها تلبس قميص نوم أحمر. يكاد الوزير أن يبكي، ويهزّ كتفيه مرتين ثم يجفّف عرقه بمنديل ورقي معطّر سيمرّ طفلٌ فقيرٌ من أطفال القرية بعد ذلك ويأخذه ليتباهى به أمام الآخرين وبرائحته العطرة بين الأطفال الفقراء أمثاله. ثم يستأنف الوزير استماعه إلى التليفون فيسمع صوت رامي وهو يطلب منها أن تمرّر يدها على ثديها الأيسر، ترضخ لطلبه وتمرّر يدها، تتأوّه في شبقٍ، ويتأوّه رامي في شبقٍ أكثر. يطلب منها أن تضغط على حلمتها البنية العفية التي يشتاق إليها، ترحّب وتوافق، ويزداد تأوّهها، ويعلو تأوّهه. ثم يطلب منها أن تمرّر إصبع يدها على موضع عفتها، توافق ويزداد التأوّه أكثر، بل يختلط تأوهه مع تأوهها. ثم يسألها هل تشعر بالراحة الآن، فتجيبه بأنها في قمة السعادة والرضا. ثم تتمنى لو كان موجوداً بجوارها في هذه اللحظة، فيخبرها أنه يتمنى ذلك أكثر منها. ثم يطلب منها أن تحدّد له موعداً يقابلها فيه، وبالفعل تقول له، وهي تتأوه بأنوثةٍ طاغية، إنها ستنتظره يوم الخميس القادم قبل الظهر في بيت أخته أشجان زوجة عدلي السيد عبد الوزير، وعبد بيت أبو الشامات الذي يسكن في بيتٍ صغيرٍ ملاصقٍ للدوار

أعطاه جدهم لعبده ليسكن فيه. يكرّر لها أنه يحبها، ولا يطيق العيش بعيداً عنها، ولا يرى في الكون نساء غيرها، ولا يمكن له أن يعيش بدونها؛ فتعاود التأوّه بشكلٍ متوحش. يصعِّد رامي من تأوّهه، يسألها عن شيء بجوارها يمكّنها أن تدخله في فرجها غير إصبعها، فتقول له لا يوجد غير كمّاشة حديدية نسيها كهربائي جلبه الوزير ليصلح عطلاً في أحد مصابيح حجرة النوم، فيطلب رامي منها أن تمسك الكماشة، توافق، ثم تدخلها في فرجها، يطلب منها أن تدخلها بالراحة، شيئاً فشيئاً، توافق ثم تصرخ، فيرجوها أن تدخلها وهو يتوسل إليها أن تفعل، ويذكّرها بحبه لها، فتوافق وتقبل وهي تقول بأنوثةٍ طاغيةٍ جعلت عشيقها يصرخ:

– بس دي ممكن تبهدلني.

يتوسل إليها وهو يذكّرها بحبه لها، توافق، وتمسك الكماشة، وتدخلها في فرجها وهي تتأوه بصعوبة شديدة، وهو يكرّر لها كلمة أحبّك، وأنتِ حياتي، وأنتِ روحي، وأنتِ أملي وحب عمري. وشيئاً فشيئاً تُدخل الكماشة في فرجها، ثم تُخرجها وهي تتأوّه بصعوبةٍ أشدّ!!

قبل أن يصل دوح إلى باب الدوار الواسع العالي الأثري القديم يسمع أمه وهي تأمره بأن ينتظر حتى تنتهي خالته سارة من تناول طعام الغداء ليقوم بتوصيلها. يوافق دوح، ويأمر الخادمة أن تحضر له غداءه، وبسرعة ينهمك مستمتعاً بغمس الخبز البلدي الطازج، مرةً في الملوخية الكثيرة الطشة[1] بالثوم والسمن البلدي، ومرةً في البامية

١ الطَّشَة: الثوم المحمّر بعد دقّه في السمن البلدي.

التي يتخللها بعض الفلفل الأسود الفاتح للشهية، يأكل حتى يشبع من الطبيخ والخبز، ثم يأكل حمامة عفية محمّرة في السمن البلدي، ثم يغسل يديه في الدورق النحاسي، ثم يشعل سيجارة وهو ينتظر أن تفرغ سارة من غدائها لكي يوصلها إلى بيتها، خاصةً وأن خالته سارة كريمةٌ معه جداً، وكلما وجدته أو وجدت واحداً من أقاربها تعطيه بعض المال الذي ينفع في شراء السجائر أو لعب الكوتشينة[1] في المقاهي، أو لشراء هدايا للعشيقات في الموالد...

يهزّ الوزير كتفيه وهو ينظر بلوم إلى فيفي، ويشعر بأن الأرض تدور به، فيجلس القرفصاء سانداً ظهره إلى حائط الرهبة، وهو لا يدري ماذا يقول أو ماذا يفعل. تقسم فيفي بالله والمصحف والأولياء وحياة الوزير وغلاوته بأن ما سمعه تلفيقٌ في تلفيقٍ ووقيعة بينها وبين الوزير من أناسٍ يستكثرون عليهما السعادة، فيقول أبو زيد لها بغضب، وهو يدفعها بعيداً، إن ما سمعه زوجها لا يحتاج إلى دليلٍ، صوتها وصوته هي ورامي الحقير الخسيس، ثم يدفعها بعنفٍ فتحتضن ولديها بغضب وتخطو بهما بتوترٍ وانفعالٍ ودمعها على خديها وثدياها يرقصان وجسمها يهتز وتهتز الأرض تحته وهي تبتعد عن الرهبة وتعطي ظهرها للدوار. ينظر الولد الأصغر إلى أبيه ويبكي، فتسيل دموع الوزير على فراق ولديه اللذين رآهما بعد سنين من الحرمان والعذاب، لكن أخاه أبو زيد يقول له:

– تغور ويغوروا عيالها.

---

١ الكوتشينة: ورق اللعب.

(٨)

على أطراف أصابعه يجلس أبو زيد بجوار أخيه الوزير ويحكي، وهو ينظر ناحية الأرض، عن أن المقطع قد انتشر للأسف الشديد في القرية كلها، بل والقرى المجاورة، وربما في البداري كلها، وربما في أسيوط، ويقول إن شخصاً حقيراً قد حمّل المقطع على اليوتيوب، وصار في إمكان المغتربين من أبناء القرية في السعودية وقطر والإمارات وليبيا أن يسمعوه بكل سهولة، لقد انتشر بسرعة انتشار النار في ليف النخل أو في القمح الأصفر قبل الحصاد، وأن أهل القرية الآن ليس على ألسنتهم غير حكاية رامي وفيفي زوجة الوزير. يهزّ الوزير كتفيه هزتين متتابعتين وينظر ناحية الشمس، وقد ازداد وجهه احمراراً وأوشكت دموعه على النزول، ويقول:

– أنا عارف مين اللي ورا الفضيحة دي، ويا أنا يا هوَّ!!

يمشي دوح في الشارع الرئيسي للقرية وحوله البيوت وخلفه خالته سارة. يتصادف مرور مرسي ابن عمته ممتطياً حصانه ذا السرج الفضي الجميل. ينزل مرسي برشاقة فارس متمرّس ويسلّم على سارة

أم هشام التي تلفّ وجهها بالطرحة السوداء بيد وتسلّم بالأخرى، ثم تقول له في سعادة:

– مرسي، كبرت ياواد، وشنبك ملا وشك، إزيّك؟

تطلب منه أن يدخل معها البيت ليشرب الشاي مع زوجها وأولادها ثم تسأله عن أمه. في خجل ممزوج بابتسام يخبرها مرسي أن أمه بخير وتسلّم عليها، ثم يسلّم على دوح ويقول له في همس ومكر:

– قربتوا قوي اليومين دول من بيت أبو الشامات.

– ومانقربش ليه، دول خوالنا يابوعمتو.

برشاقة يركب مرسي فرسه، يشعل سيجارة، يأخذ نفساً، يخرج دخانه، وهو يهزّ لجام فرسه، ويقول في ضيق:

– وماله، الله يهنّي سعيد بسعيدة.

ثم يرخي لجام فرسه، ويهزّ ساقيه، وينطلق مسرعاً، ومخلفاً نقرات أقدام الحصان الجميلة على الأرض تذكّرك بإيقاع أحصنة أغنية الأقصر "بلدنا بلد سواح...".

تمرّ ساعاتٌ ثقيلة على الوزير وعلى أبيه وإخوته وأمه وزوجته أحلام وأعمامه، لا تدخل لقمة خبزٍ جوف واحدٍ منهم، فقط شاي وقهوة، وسجائر للأب، يفكرون، ويتناقشون، ويتساءلون، وهم جالسون في عمق البيت وكأنهم يخجلون من رؤية الناس، منهم من يلعن اليوم الذي ارتبط فيه الوزير بواحدة خسيسة لا أصل لها مثل فيفي، ومنهم من يلقي بالمسؤولية على الوزير لأنه انساق وراء

رغباته ولهث مثل كلبٍ جائعٍ ضامرٍ خلف فيفي، وأدمن السير خلفها وخلف شهواته دون عقل حتى وصلت به الحال إلى هذه الحال المشينة وهو حفيد البكوات والباشوات؛ هذه الحال التي يتزوج فيها بنت عبدهم. لكنّ الوزير، الذي يحب فيفي ويعشق التراب الذي تمشي عليه، يقول إن فيفي ضحية مؤامرةٍ حاكها ونسجها مرسي اللعين. وهنا يتدخل الأب الحاج عاصي ويحذر ابنه الوزير من الدخول في مواجهة مع مرسي في هذا الوقت، ويشرح له أن الأمور بعد الثورة قد ساءت كثيراً والأوراق اختلطت، ومن كان حاكماً الآن يعيش لا حول ولا قوة له في السجن، ومن كان مسجوناً ربمّا عما قريب يصبح حاكماً، ويؤكّد له أن وضع عائلة أبو الشامات جيد حتى الآن، مع إدراكه التام أنه جيد شكلاً، ويذكّره بأن الناس ما زالوا يعاملونهم على أنهم سادة البلدة، ويحذّره من وضعهم في اختبار أو على محكّ لأنهم ربما إذا وُضعوا في اختبارٍ جديدٍ تهتز مكانتهم وينقلب عليهم العبيد والرعاع والعوام والعائلات الصغيرة وهزازة الأرض[1]، وطبعاً يأتي في مقدمة هذه العائلات التي تشكل خطراً عليهم عائلة أبو عقل وعائلة أبو كرسي، خاصةً وأن بينهم شبابٌ متطلّعٌ يضعون رؤوسهم بمحاذاة رؤوس شباب أبو الشامات. ويذكّرهم بأنّ عائلة أبو كرسي لها عند عائلة أبو الشامات قتيلان قديمان تودّ لو تثأر لهما لتهدأ روحاهما في التراب. لكنّ الوزير، الذي عاش حياته منذ ولد وحتى الآن سيداً، يتجاهل ما قاله أبوه ويصرّ على ألاّ يرى غير ما هو مقتنع به، ويقرر بحزمٍ وصرامةٍ الانتقام

١ هزازة الأرض: الحثالة.

من مرسي، خاصةً وأنه تأكّد من أناس مقربين منه أنّ مرسي هو من روَّج لانتشار الفيديو وجعله متاحاً لكل الناس ومتعةً مجانيةً للمراهقين والحاقدين والمفلسين غير القادرين على الزواج...

يعود حميد سعيداً إلى بيته، وهو يحمل فوق ظهر حماره الكثير والكثير، وفي جيبه ما يدخل السعادة على زوجته. يجلس على ظهر الحمار وهو يدندن قائلاً:

- وعملت غنَّامي وأتباهى بقولة حي.

ينظر إلى زهور الرمَّان ذات اللون الأحمر الجميل، وإلى قناديل المانجو الصفراء وثمار النبق العفية المسكرة. يفرح برؤية الناس ويحيّيهم بصوتٍ حميميٍّ ممزوجٍ بالابتسامة. يلاحظ الجِمَال وهي تحمل عيدان القصب الخضراء فوق ظهورها وتمشي في طرقات القرية. يرى أكثرمن بائعٍ وضع أمام بيته الكثير من عيدان القصب. يدرك أن الليلة عيد الغطَّاس النصراني. يقترب من عِشَّة صفية، يضع يده اليمنى في جيبه العميق، يُخرج خمسة جنيهات ورقية قديمة كادت أن تتمزق، يطلب منها أن تحضر له قصباً بثمنها. تحضر له خمسة أعواد عفية خضراء مشرّبة بالحمرة وخالية من السوس، تهمّ بتقشيرها وكسر البولة، يطلب منها أن تُبقي العيدان كما هي لكي يعطي الزعازيع[1] لحماره العجوز، ويقول لها إنّ من حق الحمار أن يحتفل مثله بعيد الغطاس. تبتسم وتفعل، وتحضر خمسة عيدان عفية وطويلة وطرية. يضع العيدان أمامه على ظهر الحمار، يثني العيدان

١ الزَّعَازِيع: مفردها "زعزوعة"، وهي رؤوس عيدان القصب.

بين يديه ليتأكد من أنها طرية وسهلة المصّ ولا تستعصي على أسنانه التي أكلها الزمن شيئاً فشيئاً، يطمئنّ لطراوة العيدان ويستأنف السير وهو يفكر في ما حدث بين رامي وفيفي، وماذا سيفعل الوزير لينتقم لنفسه ولشرفه؟ ثم يتمايل على ظهر حصانه ولسان حاله يقول: آآآآآآآه آآآآآآآه...

(٩)

يصل حميد إلى بيته، يرى سنية تنتظره وهي تبتسم. في البداية يخمّن أنها عرفت أنه قد حصل على مبلغ جيد من الفرح، لكنها بدلال تنفي ذلك. يقول ربما يكون سببُ السعادة أنني اشتريت لها قصباً كي نحتفل أنا وهي بمصّه معاً في عيد الغطاس، لكنها بدلال أروع تنفي ذلك. يحتار ويسألها، فتمسك بيده وتضعها بحنان وحب على بطنها. يرتبك حميد، ويضطرب، ويفرح، ويحزن، ويتلعثم في الكلام عندما يجد أن بطنها قد ارتفعت عن مستواها الطبيعي. يسألها:

– هو أنتي حامل؟

يحمرّ وجهها خجلاً وحباً وحياءً. يقف حميد وينزع شاله عن رأسه، يلفّ الشال حول وسطه ويرقص سعيداً بعصاه في الرهبة الواسعة وهو لا يصدّق ما يراه. تجري سنية نحوه وبحذر تضع يمناها على فمه وتطلب منه أن يسكت حتى تتأكّد من الحمل أولاً. يرضخ لها ويسألها: كيف نتأكد من ذلك؟ تقول له إن اليوم هو يوم الجمعة، والمستشفيات هنا في مركز البداري في هذا اليوم ليس بها أطباء، ويوم السبت بمشيئة الكريم نذهب إلى طبيب المستشفى لكي نتأكد

من الحمل. ثم تبتسم وتقول له:

– وبالمرَّة الدكتور يكشف لي على الجهاز ويشوفه واد ولا بنت؟

يسمع حَميد أذان العصر قادماً من جامع الشيخ سلمان أبو علي، ورغم الصقيع الشديد الذي حلّ مبكراً هذا اليوم يقبِّل يديه ويحمد ربه، ويقوم نشيطاً وكأنه صغر عشرين عاماً، يتوضأ من ماء الطرمبة المزروعة في قلب الرهبة، ومن دون أن يجفف ماء الوضوء المتبقي على ذراعيه ورجليه وجلبابه وشاله، يفرش شاله الأبيض على الأرض ويدخل في الصلاة بعينين باكيتين ووجه شديد الخشوع، بينما سنية تقشّر له القصب كأمٍّ تقشّر لولدها الصغير، وتقطّعه بأسنانها المتساوية البيضاء قطعاً صغيرة، وتضعه في حجرها. وما أن ينتهي من الصلاة وينظر حوله حتى يرى الفراشات ترفرف حوله بألوانها الساحرة، وأطفال الجيران يلعبون ويغنون وهم سعداء، والزرازير تصوصو[1] فوق الجميزة. يبتسم ويستدير ويحكي عن عيد الغطاس، يقول لها: فور أن يغطس النصراني في هذه الليلة يخرج الصقيع من الأرض وينتهي البرد ويحلّ الدفء في الماء وفي الأرض، فتُخْرِج الأرض ما في باطنها من خيرات، وتحلّ الخصوبة في الأبقار والجواميس والماعز والنساء. وعندما يقول "النساء" تبتسم سنية فيقرّب رأسها من صدره وبمداعبة يقول لها إنّ بركة عيد الغطاس قد حلّت بها قبل كل الكائنات، فتضحك، ويضحك، ثم يبدآن مصّ قطع القصب المسكرة...

---

١ تصوصو: تصاصئ.

كان الليل، هشام بين يدي أمه، أكل وشرب وأوشك أن يهمّ بالخروج. أمه تضع بين يديه كوب حلبة حصى[1]، تجلس قبالته، تمسك يديه، تذكّره بالوزير وما حدث بينهما، تقول له إنه ابن خالتك، وإنه يتمتع بعلاقات مع مسؤولين كبار، وإنّ كلمته مسموعة، ثم تطلب منه أن يسمع كلامه ويفعل ما يأمره به، وتوصيه بأن يكون قريباً منه وأن يذهب إلى مستودع البوتاجاز مثل شباب عائلته، ويقف مثل كل أبناء عمه، ويبيع مثلهم. يرفض هشام ويقول:

– حرامّ!

تأخذه على عقله ثم تطلب منه أن يذهب مع أبناء عمه إلى المستودع ليقف معهم فقط، ولا يأخذ من أموالهم الحرام التي يأخذونها قهراً من الغلابة والفقراء والعامة، وتنصحه بألاّ يتورّط في بيع أو شراء، ثم ذكّرته بحبها له، وبأنه ابنها البكر وأول فرحتها، ثم تمازحه وتخبره مبتسمةً بأنها تبحث له عن عروس، ثم تطلب منه أن يحلق لحيته ويبتعد عن العيال السُّنية. يبتسم ويوافق، ولكن قبل أن تحضر له ماكينة الحلاقة والمرآة وشفرة الحلاقة والمعجون يصل إلى سمع هشام صوت عميرة وهو يصيح:

– الْعشا يا هشام.

يهرول هشام خارجاً. تجلس سارة، وهي تضع ماكينة الحلاقة والشفرة والمعجون جانباً، وتقول:

– ربنا ياخدك ياعميرة ويريِّح البلد منك.

---

١ حِلْبَة حصى: ثمار الحلبة عندما تغلى في الماء بكاملها دون طحنها.

أيام ثقيلة وموجعة تمرّ على الوزير في شقته، وهو لا يخرج من الدوار ولا يدخل، فقط يفكر، ويفكر، ويفكر، وأحياناً قليلة يستخدم تليفونه المحمول، لا يستقبل أحداً في شقته أو في المندرة إلا زوجته الرقيقة أحلام التي مهما فعل بها لا تغضب منه ولا تُغضبه، فهي تحبه، وهو يحبها، ولولا أنها فشلت في أن تنجب له طفلاً طيلة السبع سنوات الماضية ما كان تزوج عليها. أمه وأبوه وإخوته يحبّونها أيضاً، فهي طيبة وودودة ولا تغضب أحداً. وحيداً يجلس الوزير في صالة شقته الواسعة أسفل صور له بارزة في أطر ذهبية، وهو يقف بجوار محافظ أسيوط مرةً، وأخرى وهو يقف إلى يمين أمين عام الحزب الوطني الذي ظل طيلة خمسة وعشرين عاماً في هذا المنصب حتى كبر وشاخ وهرم وصار يمشي على عكازين، وصورة له وهو يتوسط بعض الوزراء. يجلس وينظر بعينيه ناحية النجوم الزاهية اللامعة التي تطلّ من البلكونة[1]، والسماء الصافية كالفضة، والهدوء الشديد الذي يجعل صوت العصافير واضحاً، وخربشات القطط واضحة، ورفيف أجنحة الناموس مسموع جيداً. ويتذكر في لوم وحرقة ذهابه منذ سنوات بعيدة إلى بيت منصور عبيد، جزار قرية أبي وشم، المكوّن من طابقين من الطوب اللبن والمطلية بوابته وجدرانه بدماء الذبائح الحمراء – فهو يعمل جزاراً – والمجاور لمقام الشيخ سلمان أبو علي، ويتذكر سلامه على منصور وعلى ولده الأسطى شرف سائق السيارة نصف النقل، ثم تركه لهما دون أي اعتبار أمام البوابة ودخوله إلى بيتهما دون إذنهما، ثم مداعبته للسيدة الأربعينية

١ البلكونة: الشرفة.

الجريئة التي تعتني بإظهارِ بشرتها الناعمة، من منبت الثديين وحتى الوجه ومن أعلى الركبة حتى القدمين. هذه السيدة اسمها بخيتة، وهي أم فيفي زوجته الحالية وأم ولديه، يتذكرها ويتذكّر مغازلته لها، ثم سحبها خلفه، وهو قابض بيمناه على يدها الطرية، ثم بيسراه يضع بين ثدييها المثيرين ورقة من فئة الخمسين جنيهاً، ثم الدخول معها إلى حجرة زوجها منصور المطلّة على البوابة، والتي يجلس أمامها زوجها وابنها شرف، ثم يتذكّر غلق الباب عليهما وحيدين وقضاءه معها نصف ساعة، ثم خروجه منتشياً سعيداً متورّد الوجنتين، وهو يقبّل يديه ويحمد ربه كمن فرغ لتوّه من الصلاة. ثم رؤيته لنورا بنت الثلاثين من عمرها، صاحبة العود الفارع والشعر الناعم الطويل والملامح المهيبة، زوجة شرف. يتذكّر تقدّمه ناحية نورا ومغازلتها بكلام خارج[1] جريء جعل وجهها يحمرّ من الخجل، ثم مسكه يدها وتقريبها من عضوه الذكري البارز من جلباب أبيض شديد النعومة، ثم وضع ورقة أخرى من فئة الخمسين جنيهاً بين ثدييها، ثم صعوده بها درجات السلم، وهو يلفّ يمناه حول وسطها إلى شقة شرف زوجها، ثم غلق الباب عليهما وحيدين وقضاء نصف ساعة أخرى مع نورا بينما منصور وابنه شرف يجلسان أمام البوابة يضحكان ويدخنان ويعتنيان بشاربيهما غير مكترثين بما يحدث في الداخل من مغازلة وألفاظ خارجة ولمس ومصّ ومسك وصراخ وتأوهات جنسية نارية، ثم نزول الوزير وهو يرتدي جلبابه الأنيق ويلفّ شاله على درجات السلم، وقد احمرّت خدوده. ثم رؤيته لفيفي جالسةً

١ كلام خارج: كلام غير لائق.

على حصيرة من البلاستيك خلف البوابة، وهي في السادسة عشرة من عمرها. يتذكر رؤيته لها وهي تتفتح بعنف وفوران، ثديان صارخان ممتلئان يكادان يشقّان صدر الفستان، وشفتان ورديتان غليظتان، وعنق كالجمل عفي وناعم ومثير، وأنوثة طاغية. يحدّق فيها باشتهاء ثم يهزّ كتفيه هزّات متتاليات، ويُخرج من جيبه لفافة فلوس من فئة المائة جنيه يقدّم لها أضعاف ما قدّم لأمها وزوجة أخيها نورا، لكنها بدلال وأنوثة طاغية ترفض. تأمرها أمها أن تأخذ الفلوس ولا تُغضب الوزير، لكنها ترفض. يتقبّل الوزير رفضها بروح رياضية ويبتسم، ويضع يده على خدّها مداعباً، فتبعده، ثم يضع الفلوس في نهر ثدييها الشهيين فتهمّ بإبعاد يده وإعادة الفلوس، لكنّ الوزير يخرج وهو يعدهم بالعودة مرة أخرى. لكنّ فيفي تؤكد له أنه لن يقربها وأنها لن تسلّم له نفسها مثلما فعلت أختها سوسن التي تكبرها، والتي أحبّته وسلّمته نفسها، وبسببه انتفخت بطنها وضاع شرفها ولحق بها العار وأصبحت سيرتها على ألسنة أهل القرية، ثم وُضِع لها السمّ في الدواء وماتت مسمومة. يتسمّر الوزير مكانه ويرتبك، لكنه يدرك أنه لن ينال من شهدها بالطريقة التي نال بها من شهد أمها وأختها وزوجة أخيها، فيبتسم، ورغم أنه متزوج من أحلام التي يحبها، والتي لا تبخل عليه بشيء من طرح فاكهة جنائنها التي لا تتوقف عن طرح الثمار اللذيذة الشهية، إلا أنه يهزّ كتفيه هزّتين متتابعتين ويطلب منها الزواج، وبسعادة كبيرة، وعلى الفور، توافق أمها ويوافق أبوها وأخوها!!

تعلم سنية زوجة حميد السقا أنّ فريداً قد أرسل مالاً كثيراً لزوجته

منى. تذهب سنية وتنصح منى أن تلجأ إلى المشايخ أو أصحاب الوصفات البلدية أو الأطباء كي يجدوا لها حلاً في مشكلة عدم الإنجاب. توافق منى وتسألها عن المشايخ الممتازين أو الأطباء البارعين، وتطلب منها أن ترافقها في هذا المشوار. توافق سنية، وفي اليوم المحدد لزيارة الشيخ مصباح تلبس سنية ملابسها وتذهب إلى بيت فريد في الجبل، تطرق الباب، تخرج لها صفية الخرساء بنت العشرين وهي تصيح وتشير بما يعني أنّ منى لن تذهب معها ولن تضيّع أموال أخيها على المشعوذين. وقبل أن تعود سنية إلى بيتها تتوقف سيارة ميكروباص، يطلب سائق السيارة من صفية الخرساء أن تنادي منى زوجة أخيها، تسأله لماذا؟ يقول إن فريداً أخاها قد أرسل معه عشر ورقات دولار. تندهش سنية وتستغرب، وتسأل عن الطريقة التي يكسب بها فريد كل هذا المال. تقول منى إن زوجها يعمل في السوق يبيع ويشتري هناك في سوق الكريمية بليبيا، ويقول حميد إنه سمع أنه يتاجر بالسلاح، وتقول سنية إنها سمعت أنه يقاتل مع الثوار الليبيين ويقود لهم الدبابات التي لا يجيدون استخدامها، وهم يعطونه نقوداً كثيرة. لكنّ القادمين من ليبيا يؤكّدون أنه يعمل في السوق أجيراً ينزح الخراء من بيوت الليبين. تكرّر سنية طلبها من حميد بأن يترك القربة والسطل ويسافر ليجلب أموالاً كثيرة لابنهما القادم، لكنّ حميداً يبتسم ويؤكّد رفضه السفر. تذكّره بضيق الحال، لكنه يؤكد أنه لن يترك قريته إلا للذهاب إلى القبر، فهو، على حدّ قوله، كشجرة نبتت هنا وغاصت جذورها في الطين، ولو اقتلعوها ليزرعوها في أرض أخرى ستموت...

(١٠)

تنتشر حكاية فيفي زوجة الوزير وعشيقها رامي في البلد كله، ففي المقهى البسيط المجاور لحقول البرسيم، والذي يتكون من حجرةٍ واحدةٍ وأربع مصاطب طينيةٍ ونصبة عليها الوابور النحاسي والكنكةَ الألومنيوم والأكواب الزجاجية، نسمع أحد الشباب، وهو يدخن المعسّل مستخدماً جوزة[١] زجاجية بسيطة، يحكي للناس عن رامي الذي اعتاد أن يذهب متسللاً إلى بيت أخته أشجان زوجة عدلي عبد الوزيرَ وعبد كل عائلة أبو الشامات، وهناك يقابل فيفي حبيبته خفيةً ودون أن يراه أحد، ويعوّضها عن الحرمان والفقد اللذين يسببهما لها الوزير:

– بيقابلها عند أخته عشان يعوضها عن الحرمان اللي عايشه فيه هههههههههههه...

سارة تحب هشام كثيراً وتفضّله على كل أولادها، فهو حنونٌ وعطوفٌ ودائماً يهتم بالتفاصيل الصغيرة. مثلاً، عندما يأتي مولد

١ الجُوزة: "شيشة" أو "نرجيلة" صغيرة الحجم.

الشيخ سلمان أبو علي هو الوحيد الذي يحضر لأمه هديةً، وعندما يأتي تاريخ ميلادها هو الوحيد الذي يقدِّم لها هديةً، وعندما يستيقظ صباح كل يوم هو الوحيد الذي يقبِّل يدها، وهو الوحيد الذي يقول لها "يا ماما". إخوته يقولون لها "يا سارة" ولا يقبِّلون يدها ولا يحضرون لها الهدايا، لهذا فهي تحبه كثيراً، وتتأمل كل بنتٍ تكبر، تتفحص أنوثتها من شعر رأسها وحتى عرقوب رجلها، وتبحث له عن جميلة تليق به، وتحلم باليوم الذي تراه فيه عريساً بجوار عروسه، فمتى يأتي ذلك اليوم؟

تحت شجرة سنط كبيرة على ضفة الترعة يحكي شابٌ أخر، وهو يمسك بصنّارته المصنوعة من جريد النخل، والتي يتدلى منها خيطٌ أبيضُ متينٌ في منتصفه شارةٌ بيضاء من البوص، وفي نهايته الصنّارة الحديدية والطُعم الذي هو عبارة عن دودة أرضٍ لزجةٍ حمراء، يحكي الشاب لشباب مثله عن رامي ابن الخامسة والعشرين، الأنيق الجميل، عندما ذهب يسلّم على صديقه زينهم، ابن خليفة تاجر الخمور والبيرة والمخدرات والسلاح، عندما عاد من قطر. زينهم العائد من الغربة بلكنة غريبةٍ وملابسَ غريبةٍ وطباع غريبة يبحث عن بعض الرنّات والأغاني والأفلام المحمّلة على كارت الميموري[1]. يستمع زينهم إلى نغمات جميلة من رامي، تستهويه النغمات والرنّات والأفلام، يطلب زينهم التليفون من رامي، ويستمع مرةً أخرى إلى بعض الأغنيات التي تعجبه. تنادي نورا الجميلة القوية، زوجة شرف، رامي

١ كارت الميموري: بطاقة الذاكرة.

أخاها. زينهم يحفظ صوت نورا منذ سنين مضت، ويعشقه، ويعرفه جيداً، لكنه يستغل الفرصة ويخطو ناحية الباب لكي يمتّع عينيه بالنظر إلى هذا الوجه المهيب والشعر الطويل والعود الخيزران والعيون المثيرة الواسعة. تنظر إليه فيشعر بالمتعة. يطلب منها الدخول، بل ويتوسّل إليها، لكنها ترفض وتطلب منه أن يبلّغ أخاها رامي بأنها تريده. يعود زينهم، يبلّغ رامي. يخرج رامي تاركاً التليفون المحمول مع زينهم. يستغلّ زينهم غياب رامي ويبحث بسرعة عن شيءٍ مثيرٍ داخل التليفون، فيجد فيلماً لبنت ترقص بقميص النوم، ثم يجد فيلماً قصيراً لشاب بجلباب صعيدي يضع يده على ثدي بنت أخرى وهما يتبادلان الكلام الإباحي، ثم يجد أفلاماً جنسيةً مثيرةً جداً لعربٍ وهنودٍ وأجانب. يشاهد بدايات هذه الأفلام وينتقل بسرعة من فيلم إلى فيلم حتى يفاجأ بفيديو مكتوب تحته "حبيبتي فيفي"، ولأن زينهم يعرف قصة الحب المشتعلة بين رامي وفيفي يضغط بسرعة على زر التشغيل ويفاجأ بصوت فيفي الأنثوي الناعم الشجي وصوت رامي الرومنسي وهما يمارسان الغرام، وقبل أن يكمل الفيلم حتى نهايته يسمع خطوات رامي قادماً من بعيد فيضغط بسرعة على زر الإيقاف ويتظاهر بالعادية، يشعل سيجارةً مستوردةً ثم يظهر إعجابه بالأغاني، يجلس على الدكّة المواجهة له. يلفّ رامي الحشيش، يعطيه سيجارة، يدخنان، يضحكان، وفي عزّ سعادتهما ونشوتهما التي ساهم تدخين الحشيش في زيادتها يطلب زينهم من رامي إعطاءه كارت الميموري لينسخ منه بعض الأغنيات والرنّات؛ فقط بعض الأغنيات والرنّات...

أمام الجمعية الزراعية وأثناء تزاحم الفلاحين برائحة عرقهم النفاذة وبالطين على أرجلهم وأيديهم وجلاليبهم وحلمهم بالحصول على السماد، يحكي فلاح وهو يضحك عن كارت صغير جداً يحتوي العشرات من الأفلام والأغاني والفضائح. هذا الكارت الملعون أخذه زينهم من رامي ثمّ نسخ مقطع رامي وفيفي واحتفظ بالمقطع. لكنّ فلاحاً أشدّ مكراً يضحك ويقول إن زينهم المتيَّم بنورا – أخت رامي، زوجة شرف، الأخ الأكبر لفيفي – منذ أن تزوجها شرف ورآها هو في الفرح وهو يشتهيها ولا تغيب صورتها عن عينيه، حتى وهو يجلس حارساً للبرج المطلّ على الخليج العربي المكلّف بحراسته في قطر. يتجرّأ زينهم وينتظر نورا وهي ذاهبة لجلب الماء من حنفية عمومية أمام بيتهم، ويمدّ يده بالتليفون المحمول الأنيق نحو أذنها وهويقول لها:

– شفتي أخوكي عمل إيه في فيفي مرة[1] الوزير؟!

– عمل إيه؟

– خدي اسمعي بنفسك.

لا تصدّق نورا ما سمعت، تتلعثم وترتبك، توقف التليفون المحمول بسرعة، يكتسي وجهها المشرّب بالحمرة بصفرة غريبة. يؤكّد لها زينهم ما سمعته ويطلب منها أن تكلّم أخاها رامي وتتأكد منه، ثم يذكّرها بمصير أخيها الأسود لو وصل هذا الفيديو إلى الوزير. ترجوه أن يمسح هذا الفيديو وبسرعة. يوافق زينهم لكن شريطة أن تحقق له أمنيته وتمنحه شيئاً من عسلها الفريد ويقول لها:

---

١ مرة: زوجة.

– هاستناكي الليلادي وإن ماجيتيش ماتزعليش.

أمام مبنى الشؤون الاجتماعية، حيث ينتظر الغلابة والمرضى والأرامل والمطلقات والنصابون وأصحاب العاهات وذوو الروائح الكريهة والتجاعيد الظاهرة والأوجاع المتربّعة أن يصرف لهم الموظف، الذي ليس سوى لصّ قابع في حجرة التكييف داخل المبنى، الخمسة والستين جنيهاً تحت بند الضمان الاجتماعي الذي تصرفه لهم الدولة شهرياً، وطبعاً يسرق من هؤلاء المال، فمعظمهم أميون، ويسرق منهم المساعدات والمعونات والكراتين[1] والبطاطين والأطعمة التي يرسلها سكان القاهرة، أصحاب القلوب الرحيمة، عبر الجمعيات الخيرية، لسكان القرى في صعيد مصر الجائع، كما يحرص التليفزيون على تصويره بهذه الصورة – وسط هذا الزحام والقرف تحكي امرأة في الأربعين تتّشح بالسواد، لم تتزوج، عن نورا المسكينة التي خافت على أخيها رامي من بطش الوزير، ورضخت لطلب زينهم، واستغلّت غياب زوجها شرف وسفره بالسيارة النصف نقل التي يعمل عليها سائقاً إلى ادفو وتسللت ليلاً ودخلت من باب ضيق يفتح على الحقول يستخدمه خليفة للهروب كلما هاجمته الشرطة. دخلت نورا، وفور أن لمست قدمها أرض بيت خليفة وجدت زينهم يترقّبها وهو يبتسم في غاية السرور، ثم يمدّ يده لتحضن يدها ويسحبها إلى الداخل دون أن يلحظهما أحد، ثم يسحبها إلى شقته المطلية بالألوان الصاخبة حديثاً، ووسط صناديق

١ ج. كرتونة.

البيرة والخمور وعلى رائحة احتراق الحشيش يبثّها أشواقه وحبّه ويعترف بجمالها الشديد وبحبّه لها منذ سنين طويلة، ثم ينظر في عينيها الواسعتين الجميلتين ويجد انكساراً، وبذكاء يقبّل شعرها الناعم الطويل، ويذكّرها بحبه لها، وينحني ويقبّل قدميها، ثم يمرّر فمه على باطن ساقيها، ثم يخدّرها بكلامه الجميل، ويخلع عنها ملابسها ويفعل بها ما يفعله الأزواج بزوجاتهم وهو في غاية السعادة. وهي كادت أن ترضى بارتكاب هذه المعصية لأنه نجح في تحويل ممارسته الجنس معها من الإحساس بالقهر والضغط والتهديد، عندما أجبرها على الحضور إليه من دون رغبتها، إلى الممارسة بحبّ عندما كشف لها عن حبه الشديد وعشقه لها منذ أن تزوجها شرف ومنذ أن رآها أول مرة تجلس بجواره. ثم لملمت نفسها وارتدت جلبابها وجرت مسرعةً منكسرةً ذليلة يكاد الدم يتدفق من وجهها، فلا هي احتفظت بشرفها ولم تدع بئر عفتها مستباحاً من زينهم، ولا هي رغم توسلاتها لزينهم نجحت في مسح الفيديو اللعين الذي لو وصل إلى الوزير سيكون سبباً في مقتل أخيها رامي!!

(١١)

أمام مخبز القرية، وهو يقف في طابور طويل منتظراً عشرة أرغفة، كان شابٌّ يحكي بصوت منخفض لشابٍّ آخر عن تكرار ذهاب نورا إلى زينهم، ويؤكّد له أن نورا عندما يئست من مسح الفيديو اضطرت أن تستخدم نفسها مسكِّناً للمشكلة، بمعنى أنها تذهب إلى زينهم كي تضمن أنه لن ينشر الفيديو. لكنّ إجازة زينهم تنتهي، ويعود إلى قطر، ويقرر مكتب التموين في القرية ضمّ بعض أفراد الأسر إلى بطاقات التموين. يحتاج أبو زينهم إلى شهادة ميلاد لزينهم كي يضمّه للبطاقة، فهو حتى الآن خارجها، ليستلم له سكراً وشاياً وزيتاً وخبزاً وبوتاجازاً، بعد أن أصبح كل شيء بالكوبونات، فيأمر خليفة ابنه سعد، الأصغر من زينهم، بالبحث عن شهادة ميلاد أخيه في شقته ليقدّمها لمكتب التموين. يذهب سعد إلى حجرة زينهم، يقلب في الكراتين والشنط والأوراق، فيعثر على التليفون المحمول الخاص بأخيه زينهم، يفتح التليفون، يضغط على الفيديو، يشاهد فيديوهات للرقص وفيديوهات للجنس وفيديوهات للفضائح، وفيديوهات لبنات فقيرات كلهن سذاجة، وفيديوهات لروسيات وخليجيات

ولبنانيات وفرنساويات. يشاهد مندهشاً وهو يحكّ ما بين فخذيه بشكلٍ غبيٍّ، وفجأةً يتدفق سائله المنوي ويغرق حجر جلبابه الأبيض وسروالَه، وبسرعة يهرول ناحية الحمام، ينزع جلبابه وسرواله، يغسل السائل المنوي، يطوِّحهما في الهواء، يرتديهما مرةً أخرى، ثم يجلس في الصالة ويستأنف المشاهدة، وهو يدخن بشراهة، ويظل هكذا حتى يفاجأ بفيديو مكتوب تحته "رامي وفيفي"، لا يصدّق ما يرى، وفي عجالة يضغط "تشغيل"، وباهتمام يستمع ويشاهد ويندهش، وسرعان ما يفرح، فينظر إلى أعلى حيث السقف المطلي باللون الموف الجميل ويقول:

– بالفيديو ده أبقا وصلتلك يا نورا.

في المدرسة، وأثناء الاستعداد للفصل الدراسي الثاني، كان عامل النظافة الوحيد بالمدرسة ينفض التراب المتراكم على المقاعد الخشبية القديمة المتهالكة وعلى النوافذ الزجاجية التي لم يعد لها زجاج، ويشمّر عن ذراعيه وسرواله، ويمسح أرضية الفصول[1] التي امتلأت بالطين والتراب، ويمسح ممرات المدرسة، ويحكي للمدرّسين عن الولد سعد خليفة، أخي زينهم، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ذي البدن الناحل والأسنان الصفراء والظهر المحني، ذلك الطفل الذي أدمن تدخين الحشيش. يقول العامل للمدرسين إنه أخذ التليفون المحمول من شقة أخيه زينهم، وذهب إلى نورا وهي ترقّق فطير القمح أمام الفرن البلدي، وبلهجةٍ حازمةٍ يأمرها بأن تأتيه ليلاً،

١ الفصول: القاعات المدرسية.

وإلا سينشر الفيديو الخاص بأخيها رامي وفيفي زوجة الوزير حتى يصل إلى أذن الوزير، ويذكّرها بما سيفعله الوزير بأخيها رامي. لكنّ نورا التي لا تطيق سعداً هذا وتعتبره طفلاً منحطّاً حقيراً لم يحظَ بأي قدر من التربية، لا يحفظ سراً ويتباهى بكل الزلاّت التي يعرفها عن الأخرين، ترفض طلب سعد بحزم وتقول له وهي تلملم فطيرها الأبيض وتلفّه في جلباب قديم نظيف حتى لا يفسد ويصبح عصياً على المضغ، وتأخذ الحلّة[1] الألومنيوم بيدها الناعمة العفية التي تغطّيها بقايا العجين، وتضع قدميها في حذائها القماشي الأنيق:

– هوَّ أنا رخصت كده؟!

يشعر سعد بالإهانة الشديدة ويذهب بدون تفكير إلى مرسي الجالس بكبرياء أمام مندرة عائلة أبو كرسي؛ مرسي الطويل كنخلة والأنيق كمسلة فرعونية والجريء كأسد، البالغ من العمر خمسة وعشرين عاماً؛ يذهب سعد إلى مرسي وهو يدرك تماماً أن مرسي هو الوحيد في القرية كلها القادر على مواجهة الوزير والراغب في كسر أنفه. يلقي سعد التحية باحترام شديد، وخوفٍ أشدّ، يردّ مرسي عليه وهو مجصوعٌ[2] على الدكة رأسه على أخرها وقدماه في أولها. يجلس سعد عند قدمَي مرسي بعد أن يأذن له، وينتظر أن ينتهي مرسي من الحديث الذي يجريه...

عندما رأى مرسي قرب أخواله، وخاصةً دوح، من بيت أبو

---

١ الحلّة: الطنجرة الكبيرة.

٢ مجعوص: مستلقٍ على جنبه باسترخاء.

الشامات، وخاصةً الوزير وخالته سارة وابنها هشام، يغضب ويعتبر هذا تقويةً للوزير عليه في عزبة أبو الشامات. المهم أن مرسي يأخذ إخوته وأبناء عمه وعمه حمدون، وهم يمسكون بالبنادق الآلية، ويذهبون إلى قطعة أرض تركها جده الحاج زعمان أبو عقل من ضمن الأراضي الكثيرة التي تركها، يذهبون إلى قطعة أرضٍ تزيد قليلاً على النصف فدان، وهناك فوق قطعة الأرض هذه يقول مرسي:

– دي نصيبي من أرض جدي الحاج زعمان أبو عقل.

يعرف دوح وعبده بالأمر ويغضبان، ويشتعل الوضع بين مرسي وأخواله وعمه حمدون من ناحية وبين خاله دوح وعبده من ناحية أخرى، ويتدخل الأكابر من قرانا والقرى المجاورة ولجان فضّ المنازعات وأعضاء مجلس الشعب السابقين، لكنّ مرسي يتمسك برأيه، وينصرف الحاج فتوح ومأمور المركز ومن معهم وقد فشلوا في الصلح بين مرسي وأخواله...

يُخرج سعد التليفون، يبحث عن مقطع فيفي ورامي، يضغط زرّ التشغيل، يتبسم، ويطلب من مرسي أن يستمع إلى المقطع. يسمع مرسي صوت فيفي وعشيقها رامي عبر التليفون، لا يصدّق ما يسمعه، يضحك ويدخن الحشيش، ثم يعتدل ويجذب التليفون بقوة، يستمع إلى المقطع مرة ثانية باهتمام، يضحك منتشياً بملء فمه، يرسل المقطع إلى تليفونه عبر "البلوتوث" وهو يقول:

– كده انتهت جمهورية الوزير وبدأت مملكة مرسي.

أدرك مرسي الذي قرأ الواقع جيداً أن هذه اللحظة هي أنسب

لحظة للتمرد والثورة على صديقه القديم الوزير وإزاحته وتنصيب نفسه زعيماً للقرية بدلاً منه، خاصةً وأنه يمتلك الآن هذا المقطع الذي يصيب أي رجلٍ حرٍّ بالسكتة القلبية، علاوةً على أنّ الوزير قد خسر سنده الأقوى المتمثل في معارفه وأصدقائه من رجال الشرطة الذين اختفوا وانهارت هيبتهم مع سقوط وزارة الداخلية إبان ثورة يناير. فهل ينجح مرسي في ما يصبو إليه ويحلم به؟

(١٢)

تحت الجميزة، في وسط الرهبة، يجلس حميد القرفصاء، يرفع ذراعه اليمنى العفية السمراء ذات الأصابع الطويلة الضخمة ويغرسها في شيكارة[١] بلاستيكية بيضاء فيها بعض دقيق القمح الناعم، فيغرف غرفةً كبيرة من الدقيق ويضعها في ماجور فخاري صغير على أطرافه بقايا عجين جاف، ويضع على الدقيق بعض فصوص الملح من علبة بلاستيكية بيضاء بجواره، وبيسراه يمسك قلّة[٢] ماء فخارية، يصبّ الماء برفق في الماجور الفخاري، ينحّي القلة الفخارية جانباً، وبيمناه يعجن الدقيق بالملح والماء، أمامه زوجته سنية تبتسم من قلبها وهي تضع يدها برفق على بطنها. يتحول الدقيق والملح والماء إلى كتلة من العجين المالك[٣] المتماسك كالملبن، يقطع من كتلة العجين كرات صغيرة أكبر قليلاً من كرة التنس، يرشّ الدقيق على كرات العجين،

١ الشِّيكارة: كيس أصغر من الشوال، ويكون من البلاستيك أو الكتّان أو الخيش.

٢ القُلّة: نوع من الأوعية.

٣ العجين المالك: العجين المشبع بالماء.

يسحب المكبّة[1] الطينية والنشابة الخشبية، يضع كرة العجين على المكبّة، وبيديه الاثنتين يمسك النشابة الخشبية الناعمة الملمس، يمرّر النشابة من تحت يديه وفوق كرة العجين برفق، يذهب بالنشابة ويعود، ثم يضغط كرة العجين حتى تنبسط الكرة وتتحول إلى قرص دائري منبسط من العجين. يمسك قرص العجين المنبسط، وعلى جمرات النار الصافية الحمراء القابعة وسط الرماد في بطن الكانون[2] الطيني يضع قرص العجين، ثم بمحساس حديدي تحرّك سنية جمرات النار حتى تستقر على قرص العجين، تستمر في هذا حتى يختفي القرص وسط الجمر تماماً، ويستمر حميد في صنع أقراص العجين مستخدماً النشابة والمكبة والعجين، بينما سنية تخرج أقراص العجين وقد تغيّر لونها من الأبيض إلى مزيج من الأبيض والأحمر والأسود، وتصلّبت وفاحت منها رائحة جميلة. تمزّق سنية الأقراص الخارجة من النار إلى لقيمات صغيرة تضعها في طبق أبيض كبير، وكلما قطعت قطعة تنفخ في أصابعها وتسكب على القطع السمن البلدي ذا اللون الأصفر والرائحة الزكية، وبأصابعها تخلط اللقيمات بالسمن البلدي وتأكل، ويأكل حميد بشهية مفتوحة لدرجة أن الطبق لا تتبقّ فيه إلا رائحة السمن البلدي، ثم يشرب ما في القلّة الفخارية من ماء مالح، لكنه بعد الغطاس صار ماءً ممتعاً لا يرتوي منه أحدٌ، ثم يشرب كوب الشاي الثقيل بصوت رشفات مرتفعة، ثم يسترخي

١ المَكَبّة: أشبة بصينية ملساء تستخدم في صنع الفطائر، ولكنها تصنع من الطين وروث الماشية وفتات الطوب الأحمر.

٢ الكانون: الموقد.

واضعاً رأسه على حجر سنية وأذنه اليمنى على بطنها، وبيسراه يتحسس بطنها الناعمة برفق وحنان وحب وسعادة، وهو يكلّم ابنه القابع في بطن أمه عن فرحته الكبيرة بمجيئه وعن شوقه لرؤيته، بل وينظر إلى السماء في شرود ويتخيل ابنه هذا وهو يخطو، تاتا تاتا...، في الرهبة، ثم وهو يركب جريدة نخل جافة ويتخيلها حصاناً، ثم وهو يحمل حقيبته القماشية الممتلئة بالكتب والكراسات ويذهب إلى المدرسة، ثم وهو يمسك العصا الخيزران بيديه ويرقص في الفرح على أنغام المزمار الصعيدي. تبتسم سنية، ويبتسم حميد وهو ينظر إلى ملامحها المختلطة والممزوجة في عينيه بفعل العشى الليلي، لكنّ هذا المزج لا يقدر على إخفاء فرحتها. يظل حميد يحدّق في وجه سنية لحظات ثم يعود ويكلّم ابنه الذي في بطن أمه لحظات أخرى، مرةً يلومه على تأخره في المجيء، ومرةً يشكره على أنه قرر المجيء، وقرر أنه سيحمل اسمه، وسيحافظ على البوابة مفتوحة إلى يوم الدين، وسيذهب إلى بنات عمه وعماته في الأفراح، وسيتلقى العزاء في من يموت. ثم يراه عندما سيتزوج، وينجب، ويحافظ على اسم حميد رزق السقا حياً كشجرة الجميز العريقة. وسنية غير مصدقة، وترجوه أن يخفي فرحته حتى تتأكد من الخبر. يطمئنها، ويطلب منها أن تنام بجواره على الحصيرة المفروشة تحت الجميزة حتى يطلع النهار ويذهب بها إلى دكتور الوحدة الصحية. تضحك وتخبره أن الصبح قد أوشك على الطلوع، وأن الوقت سرقهما. يعتدل وينظر شرقاً فيرى أشعة الفجر الذهبية القوية، والعصافير بألوانها الجميلة، والزرازير بأجنحتها البنية الممزوجة بالسواد، والحمام واليمام بألوانه الحمراء

والبيضاء فوق أغصان شجرة الجميز الخضراء، فيدرك أن فرحته بحمل زوجته أفقدته الإحساس بالزمن، ويعترف لزوجته بذلك، ثم يخبرها بعدم رغبته في النوم، ثم يقف، ومن طرمبة اليد التي تتوسط الرهبة يتوضأ، ثم يفرش شاله الأبيض على الحصيرة ويصلي في خشوع ويشكر الله، ثم يفكّ قيود حماره العجوز ويضع قربته على ظهره وسطله القديم في يده ويخرج على أمل أن يمنّ عليه أحد الفلاحين ببعض البرسيم الأخضر ليقدّمه للمعزتين والجدي وببعض الدجاج والإوز. أما سنية فتغسل رأسها بماء شديد السخونة يجعل البخار يتصاعد من بين شعرها الناعم الكثيف، وبصابونة غسيل لا رائحة لها، ثم تمسك الفلّاية[1] الخشبية ذات الأسنان الدقيقة المدببة كإبرة وتمشّط شعرها المجعد، وكلما تمرّ الفلاية الخشبية في شعرها تنظر في الفلاية، تسحب ما تجمّع من بقايا الشعر، تمسك بحشرات القمل السوداء وتضعها على خشب الفلاية وبسرعة تضغط عليها بأحد أظافرها، تحدث فرقعة لبطن القملة وتنفجر دماؤها السوداء، تمسح الدم الذي علق بأظافرها وبالفلاية بثوبها ثم تستأنف التمشيط حتى تنتهي من تمشيط كل شعر رأسها، ثم تضع الفلاية في حجرها وبيديها تصنع من شعرها ضفيرتين جميلتين تشبهان نخلتين يمتلكهما فلاح مجتهد، ثم تدخل الحجرة وتمسك بثوب أسود وطرحة سوداء، فتلبس الثوب الأسود فوق جلبابها المنقوش بالورود وتلفّ الطرحة حول وجهها، وتنتظر عودة حميد لكي يأخذها ويذهب بها إلى دكتور المستشفى ويطمئنها على الحمل وانتفاخ بطنها المفاجئ،

١ الفلّاية: المشط.

هي التي تجاوزت الخامسة والأربعين من عمرها، وزوجها الذي جاوز الستين بأيام قلائل...

يعرف دوح أنّ مرسي ابن أخته قد حرث النصف فدان الذي احتله من أرضهم، وأعلن أنه أخذ حقه من بيت جده زعمان أبو عقل، وعرض الأرض للبيع. يغضب دوح ويمزّق جلبابه حتى أخره ويضغط على أسنانه، ويلعن الأيام التي ناسبوا فيها بيت أبو كرسي. يصول دوح ويجول، ويسبّ ويشتم، ويهدّد ويتوعّد، ثم في الخفاء يرسل أناساً ليقنعوا مرسي بترك الأرض. لكنّ مرسي الذي زهد في علاقته ببيت جده، وخصوصاً منذ أن مات جده زعمان وهو مقاطعهم، ويرى أن خاله عبده طماع وأناني، وخاله دوح رجل تافة ليس ماهراً سوى في الجري خلف النساء وتدخين الحشيش والرقص في الموالد، يرفض كل محاولات الصلح. يعرف كل أهل القرية أنّ مرسي قد أخذ نصيبه من أرض بيت جده زعمان أبو عقل بالعافية[1]. ينظر الناس إلى دوح باستهزاء، والنسوة ينظرن إليه باحتقار، والأطفال يصفونه بالمعيلة وبعدم الرجولة. يشعر دوح بأنه أُهين إلى أبعد حد، فيبيع جملاً صغيراً وعجلين سمينين تكاد اللحوم أن تغلق أعينهما ويشتري سلاحاً له ولأبناء أخيه، ويمشي في القرية معترفاً بأنه اشترى هذا السلاح ليقتل به مرسي الذي اعتدى على أرضهم وعليهم؛ اشترى السلاح ليقتله ويسترد أرضه. وما هي إلا دقائق ويصل الكلام إلى مرسي الذي يسرع بالردّ على خاله دوح وهو غاضب جداً قائلاً:

---

١ بالعافية: بالقوة.

– أعلى مافي خيلك اركبه.

لكنّ والد مرسي، المعلّم متولي، الطويل العريض القوي النشيط، يلوم ابنه وينصحه بألاّ يحارب على جبهتين في وقت واحد، ويذكّره بأنهم أخواله ويجب ألاّ يغضبهم وألاّ يعاملهم بهذا الشكل، خصوصاً وأنّ خاله عبده مريض. فيقول له مرسي في أسى:

– دول مشترين عشاني سلاح!!

يربت متولي على كتف ابنه مرسي ويحكي حكاية رجل وهبه الله أرضاً كثيرة ثم ذهب إليه رجلٌ شريرٌ يريد أن يأخذ منها جزءاً، ثم يسأله قائلاً:

– هل من حقه ياخدها؟

– آه!

– أنت واد ابن كلب.

يضحكان، ثم يؤكد له والده أنّ هذه الأرض حقه كميراث من أمه، ولكن طريقة أخذها لم تكن مناسبة ومهينة لأخواله. ثم يكرر له نصيحته بألاّ يحارب عدوين في وقت واحد، وعليه أن يردّ الأرض إلى أخواله ويركّز على عدائه للوزير وبيت أبو الشامات، ثم يهمس له بأنه علم أنّ الوزير قد أرسل سراً سلاحاً إلى خاله دوح، وأنه يفتن بينهما ويشعلل الأمور ويضع على النار حلفاء وبنزيناً...

أبومرسي يتمنى أن يوفّق الله ولده ويقتل من بيت أبي الشامات رجلين، حقهم وثأرهم القديم عند بيت أبو الشامات، ومنذ ولد مرسي وأبوه لا يحلم له أن يكون طبيباً مثل عمه الذي في الإسكندرية، أومستشاراً مثل عمه الذي في القاهرة، إنما كان يحلم أن يكون رجلاً

فاجراً شجاعاً يغسل العار الذي دنّسهم منذ ثلاثين عاماً. يفكّر مرسي في كلام والده، ثم يقرر أن يرسل إلى خاله دوح رسالة مع تاجر مواشٍ قريب منه يقول له فيها إنه ترك له الأرض لكن لو اقترب من بيت أبو الشامات مرة أخرى وصادقهم فسيعود إل الأرض ويأخذها مرة أخرى، ولن يعيدها إليهم مرة أخرى حتى لو انقلبت السماء على الأرض!!

(١٣)

ولأنّ شهوة السلطة تعلو على كل الشهوات فإن الحاج فتوح يتقدم لانتخابات مجلس الشعب ويرفض ترك الفرصة لابنه الأكبر زيدان، ويرفض الأصوات العاقلة في القرية التي ترى ضرورة إتاحة الفرصة للشباب، خاصةً وأن زيدان هو ابنه البكر وليس غريباً، وهو معروف بعلاقته الطيبة بالناس، ثم أنه لم يتورط في رشى أو تجارة سلاح أو آثار مثل أبيه. لكنّ أباه ينحاز إلى نفسه التي يحبها أكثر من أي شيء آخر ويتقدم بأوراق الترشيح، ويتقدم الكثير من المرشحين، منهم من كان عضواً في الحزب الوطني، ومنهم من يشعر بالرغبة في الانتقام من الحزب الوطني الذي استبعده سنوات طويلة وحاربه وهمشه وانحاز إلى الآخرين على حسابه، ومنهم مرشحون نكرات ظهروا فجأةً ولا يعرف أحدٌ من أين ظهروا، لكنهم على كل حال قد ظهروا، وها هم على الساحة السياسية يبحثون عن دور، ومنهم رافضون للفساد ومنحازون إلى أهداف الثورة (عيش[١]، حرية، كرامة، عدالة إنسانية)، ومنهم من رفع شعار "من أجل الشريعة

١ العيش: الخبز.

الإسلامية"؛ هذا الشعار الذي ظهر بالأمس فقط، وكأننا كنّا نعيش في الفاتيكان. ولأول مرة تكون معظم البوسترات المعلقة كدعاية انتخابية على واجهات البيوت والأعمدة الكهربائية والأشجار والمدارس والمستشفيات وفي مداخل القرى بوسترات تحتوي على صور لرجال لهم لحى كثيفة وطويلة، وبوسترات لمرشحات تابعات للتيار السلفي وضعت بدل صورهن ورود، وهذا أثار سخرية غالبية الناس الذين انشغلوا بترشيحات مجلس الشعب: ينحاز جزءٌ إلى الانتماء العائلي، وجزءٌ إلى المصلحة الشخصية، وجزءٌ إلى الانتماءات الدينية. أما الانتماءات الفكرية فلم يكن لها وجود، وليس لها مرشحون، خصوصاً وأن الأحزاب الكبيرة التي لديها القدرة على الدعاية لا تهتم بالفكر، والأحزاب التي تروّج لمشاريع فكرية وتتخذها ركيزة لم تتمكن من الوصول إلى قرية كقريتنا. وكما اعتاد الناس أن يعيشوا هنا في قريتنا حسب المتاح والممكن، عاشوا هذه الأيام يستمتعون بمفارقات ومهازل هذه الانتخابات حتى ظهر مقطع فيفي زوجة الوزير وعشيقها اللعوب رامي، وبسرعة تجاهل الناس حديث الانتخابات، خاصةً وأن غالبية المرشحين هذه المرة فقراء، ويدَّعون التدين، ولا يعطون الناس نقوداً أو مخدرات كما كان يفعل العمدة فتوح فى المرات السابقة، إنما هذه المرة قام مرشح "الحرية والعدالة" الملتحي بإعطاء كل أسرة من الأسر الفقيرة، التي يلحظون أن لها ميولاً دينية، كيلو سكر وباكو[1] شاي وزجاجة زيت. أما عزبة هارمينا، أوعزبة

١ باكو: علبة.

الخوف، كلها فلم تنل كيلو سكر واحداً أو زجاجة زيت، رغم أن غالبية أهلها فقراء ويستحقون هذه الأشياء، لكن المرشحين الملتحين لديهم قناعة بأن عزبة هارمينا عزبة مشركة وكافرة ويجب محاربتها، فهل يعقل أن يقدّموا زيتاً وسكراً لمن يريدون القضاء عليه؟! على كل حال يملّ غالبية الناس الحديث عن الانتخابات، وباهتمام شديد يستمعون إلى المقطع أو يحكون عن فضيحة فيفي زوجة الوزير. لكن عندما تأتي سيرة المرشحين هذه المرة يتأفف الناس، ويسكتون أو ينسحبون، وهم يظهرون ندمهم على الانتخابات السالفة والمرشحين السابقين!!

يبقى الوزير في الدوار أيام وهو يفكر، ويفكر، ويفكر. وفي صبيحة يوم السبت، عندما تدخل الشمس ساطعةً قويةً فضيةً وتقترب من الرؤوس ومن النافذة، يلملم الوزير نفسه، ويأخذ دشّاً[1] دافئاً، ويلبس جلبابه الأنيق، ويلفّ شاله الكشمير على رأسه، ويتعطّر، ويخطو خارجاً. يعرف أبوه من صوت خطواته السريعة المضطربة أنه متوتر، وبسرعة يطلب من أحلام أن تبلغه بأنه يريده. تهرول أحلام خلف زوجها وهي تهمس:

– يا ياسر، يا بو لؤي...

يتوقف الوزير ويستدير ويسألها عمّا تريد. تبتسم وتخبره بأن أباه يريده حالاً. يعود إلى أبيه، يقف أمامه دون أن يرفع عينيه، يسأله أبوه: رايح فين؟ يقول له: مشوار وراجع. يحاول أبوه تهدئته ويذكّره

١ دشّاً: حمّاماً.

بضرورة عدم وضع العائلة على المحكّ في هذه الأيام السوداء. يومئ برأسه ويخطو خارجاً، وما إن يخرج من البوابة الكبيرة العتيقة حتى ينحرف يساراً ناحية بيت خادمهم عدلي السيد. يصيح:

– أنت يا عدلي، أنت يا جحش يابن الكلب؟

تخرج أشجان مسرعةً مضطربةً خائفةً لدرجة الرعب، والعجين يغطي ذراعيها، وبسرعة تجري نحوه وتهمّ بتقبيل يمناه. يسحب يمناه. يأتي عدلي بسمرته الشديدة، وهو يهرول خلف جملٍ يحمل برسيماً، يترك الجمل ويجري نحو الوزير، يهمّ بتقبيل يده فيفاجَأ بالوزير وهو يصفعه على خده صفعةً قوية ويقول:

– خد مرتك وعيالك وامشي من هنا دلوقتي حالاً.

وما هي إلا لحظات حتى تحتضن أشجان أطفالها الخمسة الملتفين حولها، وهم يبكون في خوف شديد، تحتضنهم كبطة فقس بيضها حديثاً، وبجلباب البيت تهرول مسرعةً، وخلفها زوجها عدلي وقد تيبّست دماؤه في عروقه، حتى تصل إلى بيت أبيها، وهناك تجد أمها العجوز وهي تغرف الطين اللزج شديد السواد من تحت الزير الفخاري الذي تنزل منه بعض قطرات الماء. تضع الطين على رأسها وعلى خدّيها وتلطم وتصرخ:

– يا مراري يا مراري يا مراري...

تربت أشجان على كتف أمها، تهدأ الأم قليلاً، تسألها أشجان عن رامي أخيها فتخبرها أمه أنه هرب وترك البيت والبلد كلها ولا تدري أين ذهب. تسألها عن زوجته تهاني الجميلة بنت الأصول المتعلمة فتقول لها أمها إن تهاني فور أن علمت بما فعله زوجها

شعرت بالإهانة والجرح العميق، خاصةً وأنها أجمل من فيفي وأحسن منها تعليماً وأفضل حسباً ونسباً، لهذا جمعت ذهبها وملابسها وحجج قراريط الأرض التي يملكونها والأموال التي في البيت وطلبت الطلاق وذهبت لتعيش في بيت أبيها. تبكي أم رامي وتصرخ، وتنوح، وتلطم، وتستأنف الغرف من الطين ووضعه على رأسها، وبسرعة تنضمّ إليها أشجان في غرف الطين ووضعه على رأسها ولطم خدودها وهما تبكيان:

– يا خراب البيوت يا ناس، يامرارررررري...

وأثناء اللطم والبكاء تدخل نورا، زوجة شرف، أخت رامي، حافية القدمين وهي تحمل ولدين صغيرين جميلين ودموعها على خديها. تسألها أمها عن سبب مجيئها فتجيب بأنها انفضحت وأنّ شرف طلّقها، فيزداد لطم وبكاء أشجان ونورا وأمهما بسبب ما فعله رامي مع فيفي زوجة الوزير!!

على يسار بيت منصور، والد فيفي، شارع واسع بعده مباشرةً رهبةٌ كبيرة ثم دكّة خشبية أمام بوابة كبيرة بنيت حديثاً تؤدّي إلى مندرة بيت أبو كرسي وتتعامد معها بوابة كبيرة بنيت بالطوب اللبن تؤدّي إلى ممر تصطفّ على يمينه ويساره بيوت عائلة أبو كرسي. فوق الدكة يجلس مرسي بجلبابه الصعيدي المهيب وبثلاثة شيلان كشمير وبحذاء جلد طبيعي، يجلس مسترخياً بعد أن أرسل مقطع فيفي ورامي إلى مجموعة من الشباب يقومون بسرقة المواشي لحسابه، ولقد حاسبهم على آخر عملية سرقة قاموا بها، وآخر عملية قطع طريق، وآخر عملية سطو على

سماد وغلال وسيارات. ثم يرنّ التليفون المحمول رنّة "ذئاب الجبل". يضع يده في جيبه، يخرج تليفوناً أحدث موديل، ينظر في الشاشة، يهتمّ، يردّ بسرعة، يستمع إلى المتصل جيداً، يقول:

– تمام، أنت كده زي الفلّ، ماشي، أنا هاتصرف، ما نتحرمش منك، تعيش يا كبير.

وبسرعة يقف ويصيح بصوتٍ مرتفع ناحية الداخل، وقبل أن ينتهي من صياحه يأتي من داخل بيوت أبو كرسي ثلاثة شبّان في الخامسة عشرة من أعمارهم، أقوياء وأنيقين ومهيبين. يخطو مرسي شرقاً ناحية الجبل ويخطون خلفه، وما هي إلا دقائق ويصلون إلى الجبّانة[1] البحرية ذات القبور الطينية وأيضاً القبور المبنية بالطوب الأحمر، وفي مقدمتها قطع رخام نُحت عليها اسم المتوفي وتاريخ وفاته. يمشون وهم لا يكترثون بالقبور ثم ينحرفون يساراً ويدخلون مبنىً محاطاً بالبلوك الأبيض يفصل بين عزبة هارمينا والجبّانة، وما هي إلا ثوانٍ ويخرجون كلّ واحدٍ منهم يتأبّط خمس بنادق، منها الجرينوف والكلاشينكوف والآلي، ويتجهون بسرعة وهمّة ونشاط إلى مدرسة الفصل الواحد التي بنيت في أخر الجبّانة. يُخرج مرسي سلسلة مفاتيح من جيب جلبابه الطويل، يضع مفتاحاً في قفل كبير وضع على باب المدرسة، يفتح القفل، يدفع الباب بقدمه اليمنى، يدخل، يدخلون خلفه، يضعون السلاح فوق ترابيزة عليها كرّاسات وكتب التلاميذ. تصل إلى آذانهم أصوات سارينة[2] سيارات الشرطة

١ الجبّانة: المقبرة.

٢ السَّارينة: بوق السيارة.

القوية المزعجة، ينظر مرسي بحذر من خلف زجاج نافذة الفصل فيرى ضابط مباحث البداري وهو ينزل بسرعة من سيارته الزرقاء ممسكاً ببندقيه آلية، ومن المدرّعة التي وقفت خلف سيارة ضابط المباحث ينزل العديد من جنود الشرطة وبعض الأمناء وبعض المخبرين وهم مسلحون بالطبنجات والبنادق الآلية، وبسرعة يهجمون يساراً على حوش بيت أبو كرسي، يبحثون في كل شيء، في الحجرات والأسقف، في الزيار والتبن، تحت الجدران وتحت الأرض، حتى يضمّ ضابط المباحث شفتيه ويخرج سيجارة مارلبورو وبحرقة يشعلها، يأخذ نفساً ثم يخرجه وينظر إلى المخبر المكلّف بمتابعة القرية ويقول له في لوم:

- الظاهر مرسي بقى بيدفع أكتر من الوزير.

يحاول المخبر الدفاع عن نفسه لكن ضابط المباحث، الذي جاء من مدينة نصر بالقاهرة إلى البداري بأسيوط ورفض أن يلوّث ويريد أن يكون نموذجاً لضابط الشرطة الشريف، يرفض الاستماع إليه وبسرعة يركب سيارته وينطلق بسرعة وغضب وبإحساس بالخديعة عائداً من حيث جاء!!

يرى مرسي حملة الشرطة وهي تعود، يجلس على بلاط الفصل البارد، يجلسون أمامه، يضحك من قلبه مستمتعاً بالنصر، يضحك من معه، يخرج علبة السجائر المارلبورو، يعطيهم سجائر، يشعل لهم سجائرهم بولاعة ذهبية، ثم يقول:

- حلاوتك يا مرسي!

- رجعوا زي ما جم.

– كان عايز يردلي القلم[1]، بس ربّكم كبير، كده خد قلم تاني.

– بس كده مش هايسكت.

– أعلى مافي خيله يركبه.

يؤكّد مرسي لأخيه وعمه حمدون وأبناء عمه أنّ الوزير هو الذي بلّغ الشرطة عنه، ولولا المخبر الذي يعمل لحسابه براتب شهري وهدايا وعزومات[2] في المناسبات لكان الآن خسر صفقة السلاح وقُبض عليه. يقول له أخوه إنّ الوزير لن يسكت. يضحك مرسي ويؤكّد لهم أنه قبل أن يفيق الوزير من اللطمة الثانية سيوجّه إليه اللطمة الثالثة حتى لا يتجرّأ مرة أخرى على مرسي. ثم يسأله أحدهم عن سرّ عدائه المفاجئ للوزير رغم أنهما عاشا أكثر من عشر سنوات صديقين حميمين. يبتسم مرسي ويوضح لهم أنّ الوزير يريد أن يظل هو الكبير الوحيد للقرية، وأنه لن يقبل هذا بعد اليوم. يقولون له: ولماذا قبلت هذا الوضع طيلة السنوات الماضية؟! يبتسم ويوضح لهم أنه كان يريد الاستفادة من علاقات الوزير بضباط الشرطة والسياسيين وأصحاب المناصب في كل مكان، وهذا كان من المستحيل أن يحققه إلا بالتقرّب إلى الوزير والالتصاق به. يقول له أحدهم: ولماذا تعاديه الآن؟ يقول إن الثورة جاءت وقلبت الدنيا، وبحكم ارتباط الوزير بالشرطة والحزب الوطني وسقوط الاثنين يكون الوزير قد سقط، ثم يضحك ويقول:

– دلوقتي أنا الريس.

---

١ القلم: الصفعة.

٢ العزومة: الوليمة، المأدبة.

ثم يخرج تليفونه المحمول ويتّصل بالوزير وهو يضحك ويخبره بأن الحكومة جاءت إليه وبحثت عن السلاح ولم تجد شيئاً. يقول له الوزير: وأنا إيه دخلي؟ يقول له مرسي بأداء تمثيلي إنه صديقه ويصرّ على أن يخبره بذلك ليفرح من أجله. يضحك حمدون وأخوة مرسي وأبناء عمه في سرّهم. يقول مرسي وهو يغلق التليفون مهدّداً ومتوعّداً:

– وربنا لهورّيك أيام أسود من الكحل يا ياسر.

(١٤)

يرى مرسي العيال السنية يتزايدون ويُكثرون من ترددهم على جامع الشيخ سلمان أبو علي، يأخذ نفساً من سيجارة حشيش رائحتها منعشة ويلاحظ استياء أخوته من هؤلاء الشباب، فيبتسم وينصحهم بأن لا يعترضوا طريقهم ولا يضيّقوا عليهم، بل أن يساندوهم سرّاً في انتخابات مجلس الشعب. يندهش الشباب ويذكّرونه بأنّ بيت أبو كرسي هم أخوال الحاج فتوح، وهم يحبّونه وهو يحبّهم، ولا يفضّل بيت أبو الشامات أهله على بيت أبو كرسي أخواله في شيء. يؤكّد لهم حبّه للحاج فتوح ورغبته في نجاحه، ثم يذكّرهم بأن معظم الملتحين من شباب بيت أبو الشامات، والملتحون والحاج فتوح لا يطيق بعضهم بعضاً، لهذا يجب عليهم ألاّ يعترضوا على الملتحين حتى يحدث شقاقٌ وخصامٌ وربما عراكٌ وقتالٌ بين الملتحين وشباب أبو الشامات الذين يتقدّمهم الوزير. يبدي الشباب إعجابهم بالفكرة ويقفون وهم يحملون البنادق ويصيحون:

– مرسي هو الريّس.

ثم يعودون بالبنادق إلى مكانها في بيت أبو كرسي المستخدم

كحوش للبهائم واصطياد الفتيات الغريبات أو الفقيرات المعدمات أو العاهرات، هذا البيت الواقع بين الجبّانة وعزبة هارمينا المنشغلة هذه الأيام بأعياد شمّ النسيم. في الفجر يصعد رجالها وشبابها الفقراء النخيل الموجود بكثرة على الترعة الكبيرة، يصعدون بمهارة، يزيحون بأيديهم الصلبة الجريد الأخضر ذا الشوك الأخضر والسعف الأخضر، يمدّون أيديهم إلى قلب النخل، يخرجون جريداً أصفر طرياً من قلب النخلة، يرمون الجريد الأصفر إلى أسفل، يجمع الأطفال الجريد الأصفر، ينزل الرجال والشباب، يربطون الجريد الأصفر في حزم صغيرة، يضعونه على رؤوس الفتيات الصغيرات، يعودون إلى قريتهم، وقبل أن يدخلوها يلاحظون أن مرسي قد صنع العديد من المطبّات الترابية وبنى الكثير من الأبراج ذات الفتحات التي تطلّ منها فوهات البنادق والمدافع، يرون أبراجاً بها مدافع مصوّبة ناحية عزبتهم، وتحديداً صوب الكنيسة العتيقة، ويرون شباناً يقفون في المداخل ويطلقون النار على أي قادم لا يستأذن مرسي بالتليفون في المرور قبلها بساعة على الأقل. يطلبون المرور، يعطي مرسي رنّة للواقف متأبّطاً سلاحه، يشير الواقف لهم بالمرور، يمرّون فرحين وعلى وجوههم بعض حبات العرق بسبب الخوف، يمرون وهم يؤكّدون للواقف من أتباع مرسي بأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً. يخافون، ولكنهم يحبسون خوفهم في صدورهم. يدركون أنّ مرسي قد قرّر أن يتّخذ منهم ساتراً لو هاجمته الشرطة، فيخافون أكثر، لكنهم يصمتون ويعودون إلى بيوتهم. يضعون الجريد الأصفر بينهم، تليّن الأمهات والآباء والفتيات الجريد في الماء في طسوت

ومواجير فخارية كبيرة، ومع العصر تجلس الفتيات والأمهات وهنّ يغزلن السعف ببعضه، منهن من تصنع شمساً جميلة، ومنهن من تصنع بيتاً وترسم عليه زهوراً وقلوباً، ومنهن من تصنع فراشات جميلة، ومنهن من تصنع خاتماً وأشياء أخرى، حتى يحل الظلام، ويأكلن السمك المملّح الرخيص بالخبز والبصل، ويأكلن البيض الذي لم يُرسَم عليه بسبب ندرة الألوان، ثم يشربن الشاي الخفيف، ويسمعن سعاد حسني تغنّي "الدنيا ربيع والجو بديع"، لكن أذن مع التليفزيون وأذن أخرى مع الخارج حيث نقيق الضفادع وعواء الكلاب والذئاب ودقات قلوبهم الخائفة التي لن تعود إلى سيرتها الأولى حتى تطلع الشمس ويملأ النور المكان، فيغتسلن ويلبسن ويذهبن جماعات جماعات لزيارة دير السيدة العذراء في جبل درنكا على أطراف مدينة أسيوط. يخرجن من عزبتهن وسط نظرات متحرشة وكلمات مستفزّة تتّهمهنّ بالكفر والعري والعهر، وربما تحرّش باليد من بعض السائقين أو الشباب الصيَّع[1]. لكنهنّ يهربن من هذا التحرش بذكاء دونما صدام أو مواجهة، لكن تبقى في نفوسهن غصّةٌ ومرارةٌ وشعورٌ بالظلم من هذه المعاملة السيئة من البعض، لكنهن يصبِّرن أنفسهن عندما تقول الواحدة للأخرى:

– الرب موجود.

في البداية اقتنعت منى زوجة فريد بأهمية أن تمتلك نقوداً، ويا حبّذا لو كانت هذه النقود بالدولار، لكن مع مرور الأيام، وغياب

١ الصيَّع: الزعران.

زوجها فريد، وجلوسها مع فتيات في مثل عمرها أو أقل منها لكنهن تزوجن وحملن ومنهن من أنجبت طفلاً أو طفلين أو ثلاثة، كانت منى ترى ذلك لكنها تصبِّر نفسها بشمّ الدولارات الكثيرة، والحلم بأن تسكن في بيت مبني بالحديد والأسمنت والخرسانة المسلحة. وكانت صفيّة الخرساء كلما وجدتها شاردةً تشير لها بانفعالٍ وغضب، وتحكي عن طريق الإشارة عن الورق الأخضر الكثير الذي أرسله أخوها فريد من ليبيا وعن البيت الذي سيشيّد ويسكنون فيه قريباً بدلاً من هذه العشّة[1] التي تشاركهم المعيشة فيها الكلاب والقطط والحمير الضالّة وأحياناً الضباع والذئاب واللصوص!!

في نفس الوقت من صبيحة يوم السبت يدخل حميد مستشفى القرية رافعاً الرأس فاتحاً صدره متشّحاً بشاله، لا قربة على ظهره ولا سطل في يده، يمشي وخلفه زوجته سنية نظيفة عفية سعيدة. يتجاوزان الباب الحديدي المفتوح ليلاً ونهاراً، يرى الماعز الذي يرعى الحشائش التي نبتت بجوار حنفية نحاسية تندفع منها المياة بقوة وتحتاج للتصليح، ثم يدخلان مباشرةً باب حجرة الكشف[2] المفتوح. ينظر حميد في الحجرة، لا يجد سوى السرير الأسود وإلى جانبه ملاءة قذرة. يستمرّ في المشي وخلفه سنية حتى يخرج من الحجرة من الناحية الخلفية. ينظر يساراً، حيث استراحة الطبيب، فلا يجد أحداً. ينظر يميناً فيجد الممرضات بملابس الخروج والإداريين

١ العشّة: الكوخ.

٢ الكشف: المعاينة أو الفحص الطبي.

بالبنطلونات والقمصان الفقيرة غير المتناسقة والجلاليب وشيلان الكشمير والعصي في أيديهم، وهم يتزاحمون حول مسؤول الصيدلية الذي عاد من مستشفى البداري للتوّ حاملاً أدوية الشهر الخاصة بالمستشفى في كرتونة وحيدة، يوزّع على الرجال الأدوية التي بها نسبة مخدرات، بينما الممرضات والعاملات يخطفن الصابون والقطن والشاش وقطرة العيون والمسكّنات من بعضهن ومن الكرتونة حتى تفرغ الكرتونة تماماً ويرميها مسؤول الصيدلية أسفل الحائط الشرقي وهو ينفض يديه ويشكو من أنهم قد أخذوا كل شيء.

يسأل حميد عن الدكتور، تقول له إحدى الممرضات، وهي سعيدة بقطرة العين التي أخذتها، إنه جاء من مدينته البعيدة في الشمال، وقد وصل لتوّه، وسوف ينزل من حجرته في الطابق الثاني خلال ثوانٍ، ثم تطلب منه ستة جنيهات أجرة الكشف. يُخرج حميد محفظةً جلدية كبيرة حوافها متأكلة، ويخرج منها خمسة جنيهات ورقية وجنيهاً معدنياً استقرّ في ركن المحفظة البعيد. تأخذها ولا تعطيه شيئاً. وقبل أن يجلس تحت الحائط، كما اعتاد أهل القرية، ينزل الطبيب ممسكاً بسيجارة سوبر طويلة ويدخل حجرة الكشف. يدخل خلفه حميد وزوجته. يتأكد الطبيب من أنه قد دفع أجرة الكشف، ثم يأخذ نفساً من سيجارته ويرميها على الأرض ثم يدوسها بقدمه البيضاء وشبشب الحمام الذي يلبسه في قدميه، ثم يمسك سماعته السوداء ويسأل سنية، وهو يقاوم آثار النوم الشديدة، ممَّ تشكو، وفي خجل تحكي له سنية عن بعض الآلام في بطنها وعن انتفاخها، ثم تبتسم في خجل وتطلب منه أن يكشف لها عن نوعية الجنين على الجهاز.

يشعل الطبيب الشاب سيجارةً أخرى ويطلب من حميد دفع عشرين جنيهاً أخرى أجرة الكشف بالجهاز. يرتبك حميد فيكرّر الطبيب أمره له، فيخرج حميد مائة جنيه كان يحتفظ بها ليشتري بها كفناً لمن يموت فجأةً، ويدفع منها العشرين جنيهاً التي أمره الطبيب أن يدفعها. يرفع الطبيب حجر الثوب عن ساقين ناعمتين ممتلئتين وبطنٍ خمرانة ويضع مادةً لزجة على البطن، وقبل أن يقرّب مقدمة المنظار من بطنها يشعل سيجارةً أخرى ويأخذ نفساً من سيجارته ثم يحرك مقدّمة المنظار على بطنها، وهي تنظر إليه في ترقّب، ثم تسأله:

– واد ولاّ بت؟

يضع الطبيب مقدمة الجهاز جانباً ثم يعيد حجر الجلباب إلى أسفل ركبتها، يجلس على كرسي خيزران ويكتب في دفتر روشتات[1] خاص به كمية كبيرة من الأدوية ويأمرهما أن يشترياها من صيدلاني أمام المستشفى بين الطبيب وبينه اتّفاقٌ وصفقةٌ، الطبيب يكتب للمرضى أدوية كثيرة وغالية الثمن وله في آخر الشهر نسبة من المبيعات يأخذها من الصيدلاني. يعود حميد، تقف سنية وتكرر:

– واد ولاّ بت؟

يقول لهما الطبيب بلهجته القاهرية وهو ينفث دخان سيجارته بكثافة:

– لسه مايتعرفش دلوقتي.

لكن حميداً يقول له في استفهام:

– بس هي حامل يا دكتور، مش كده يا باشا؟

يردّ الدكتور مؤكّداً ذلك وبكل ثقة ويقول له:

---

١ الروشتّة: الوصفة الطبية.

– يعني مش شايف بطنها؟!

يخرج حميد وسنية سعيدين. تقف سنية أمام باب المستشفى وهي تتلقى التهنئة من الممرضات والنسوة القاطنات بالقرب من المستشفى، بينما حميد يذهب إلى الصيدلية ويشتري الأدوية بما تبقّى معه من مال ثم يعود حتى يصل إلى سنية، ثم يمشيان وسط تهنئة الناس بالحمل والعريس الجديد حتى يصلا إلى البيت، وفور أن يدخلا تأتي النسوة من كل ناحية بقففٍ ممتلئةٍ بغلال القمح والدقيق والبط والإوز والحمام والدجاج والنقود. فسنية رغم أنها بنت سقّاءٍ وزوجة سقّاءٍ إلا أنها تتجاهل ذلك وتتعامل مع كل نساء القرية علىٰ أنها مثلهن، تقدّم لهنّ القفف في كل مناسبةٍ تحدث معهن، حزينةً كانت أو سعيدةً. لهذا ما إن علمن بحملها حتى فرَّغن الغلال من الصوامع الطينية في القفف ووضعن على الغلال الطيور ثم وضعن القفف على رؤوسهن وهرولن إلى سنية...

يعود مرسي وأخوه وعمه حمدون وأبناء عمه إلى الدوار وهم رافعو الرؤوس، فاتحو الصدور، مبتسمون في هيبة ووقار، يجلسون على الدكك الخشبية المرصوصة تحت الجدران أمام الدوار. تنهال المكالمات التليفونية على مرسي إلى درجة أنّ بطارية التليفون المحمول تفرغ تماماً، يعطي التليفون لأخيه لكي يضعه في الشاحن، وما هي إلا دقائق حتى يأتي كشورة، صديق مرسي، بوجهه الإجرامي وبندقيته الكلاشينكوف وأسنانه الصفراء الصدئة وعوده الناحل؛ يأتي كشورة، صديقه المخلص وزميله في حوادث

السطو على الماشية أو السطو على سيارات النقل المحمّلة بالأشياء الثمينة، أو في صفقات السلاح العديدة أو صفقات الموتوسيكلات والتروسيكلات المسروقة؛ يأتي كشورة ومعه بعض الرجال والشباب المسلحين، يأتون من عزبة الصراخ الواقعة جنوب شرق القرية. يسلّمون ويجلسون، يأخذون تحيتهم سجائر وشاياً وحشيشاً. ثم تأتي بعدهم بعشر دقائق سيارة ملاّكي حديثة، تتوقف وسط الرهبة، ينزل مكي ابن الثلاثين شاهراً بندقيته الجرينوف وخلفه ما يقرب من ثلاثين شاباً ورجلاً من شباب ورجال عائلته وهم يمسكون بالبنادق والذخيرة. مكي وكشورة ومرسي أصدقاء قدامى جمعهم الإجرام منذ سنوات، لكنّ مرسي لم يكتفِ بالصداقة وقوّى علاقته بمكي، وذلك عندما تقدم لخطبة أخته عالية. مكي من عائلة كبيرة في قرية العقال القبلي، وهي قرية كبيرة تمتد لأكثر من خمسة كيلومترات على النيل وتتوسط المسافة بين قريتنا ومركز البداري. يتقدم كشورة ومكي ومن معهما بوضع أسلحتهم أمام مرسي ويعلنون له أنهم تحت أمره، فقط يأمرهم وينفذون. لكنّ مرسي يخبرهم بأن الموضوع انتهى وأنّ الشرطة لم تعثر على أي أسلحة. يسألون عن المُبلِّغ وضرورة تأديبه فيردّ عليهم، وهو يُعرِّض أصابع الحشيش البنية لنيران ولاعته الزرقاء ثم يفكك الحشيش ويدفع طبقاً أبيض أمامه برفق ناحية أخيه، بأنه لن يترك المُبلِّغ وسوف يلقّنه درساً لن ينساه. يطلبون منه أن يخبرهم عن هذا الحقير الذي أبلغ الشرطة عنه ليأتوا به مقيّداً كالحمير، لكنّ مرسي يرتشف رشفة شاي ثقيل بصوتٍ مرتفع ثم يقول لهم:

– دا كلب وأنا كفيل بيه.

(١٥)

ما بين وضع الحشيش في السجائر أو رصّه فوق أحجار المعسّل الفخارية يرى أعوان مرسي الشبّان الملتحين الذاهبين إلى مسجد الشيخ سلمان أبو علي. يندهش مكي من هذه اللحى التي قد تزايدت ويقول لهم:

– كل ما الدنيا تسْودّ تزيد الدقون.

ويعلّق كشورة بأن الدنيا انقلبت رأساً على عقب. يردّ مكي عليه بأن الكبير سيظل كبيراً والصغير سيظل صغيراً. يأخذ مرسي نفساً من سيجارة الحشيش ويحبسه داخل صدره ثم يعطس ويكحّ ويقول لهم إنه يريد هؤلاء الشباب في الأيام القادمة. يسألونه كيف؟ يشرح ويكرّر ويؤكّد لهم أن وجود هؤلاء الملتحين سيشغل الشرطة عنهم وسيضع الوزير في حرج وربما في عراك وشجار معهم خاصةً وأنهم أقاربه وأقارب الحاج فتوح، ويوضح لهم أن الملتحين يقومون بالدعاية لمرشح إخواني وآخر سلفي وبذلك يضعفون فرص نجاح الحاج فتوح. يسألونه: ألا تريد نجاح الحاج فتوح وأنتم أخواله؟ يؤكّد لهم أنه لا يريد نجاحه. يستغربون فيقول لهم معترفاً باستفادته من

الحاج فتوح وحبه له، لكن استفادة الوزير أكثر، وفي فشل الحاج فتوح في الانتخابات فشل للوزير، وهذا ما يريده مرسي. ثم يؤكّد لهم ضرورة ألاّ يتعرضوا لهؤلاء الشباب الملتحين، وأن يتركوهم يتحركون بحرّية، وأن يعلّقوا لافتاتهم الانتخابية في أي مكان، وألّا يخيفوهم، وفي نفس الوقت يعلنون ويتظاهرون بوقوفهم إلى جانب الحاج فتوح...

تعرف منى بحمل سنية وترى فرحةً ليس مثلها فرحة على وجهها، تشعر بأنّ فرحة الأم بحملها أهم وأعظم من كل أموال الدنيا حتى لو كانت فرحتها بحزم الدولارات الخضراء، فتقرر البحث عن طريقة للحمل. تسأل سنية فتؤكد لها أنها لم تفعل شيئاً وتقول إنّ ما حدث كان نتيجة الصبر الطويل الذي صبرته، ثمّ تشعر بنغزّة في بطنها، تتألم وتتوجع. تسألها منى: ماذا بك؟ فتقول لها وهي تبتسم:

– الواد ع يرفّص.

تضحك منى ثم تعود وهي عازمة على أن تجد حلاً لعدم حملها، وما هي إلا دقائق وتكون في البيت، تدخل حجرتها، تحفر تحت حصيرتها، تخرج صرّة، تفتح الصرّة القماشية، تخرج أوراق الدولار الخضراء، تأخذ ورقة، وقبل أن تعيد الدولارات الباقية إلى الصرة، وتعيد الصرة إلى الأرض أسفل الحصيرة، تفاجَأ بصفية الخرساء تصيح بصوت غاضب وإشارات غاضبة لها وهي تطالبها بأن تعيد نقود أخيها إلى مكانها. ترضخ منى، فهي متأكدة من أنها لا قبل لها بصفية

الخرساء التي إن اعترضت عليها لعبت بها الكرة الشراب[1] مثلما يتلاعب الأطفال بالكرة في الجبل...

يمرّ يناير ثقيلاً على الفقراء هنا، فالبرد الشديد يحاصرهم ليلاً ويغيِّر حتى لون بشرتهم، والجوع والعري يكبِّل حركتهم ويقيّدهم ويجبرهم على الانكماش والكرمشة. هم يكرهون هذا الشهر البارد، لكنّ آخره جاء بالذكرى الأولى للثورة التي كانوا يرونها طوقَ نجاةٍ لهم من يأسٍ وفقر وظلم وجهل وتهميش واستبعاد عاشوا فيه. لكنّ زخمَ الانتخابات والمرشحين والسماسرة طغى على الذكرى الأولى للثورة، فالطرقات لا تخلو يومياً من مرشح، والمنادر تستقبل المرشحين واحداً تلو الأخر، وسماسرة الانتخابات الذين يحققون مكاسب مالية أو مكاسب أخرى، مثل توظيف أبنائهم وأقاربهم في وزارة البترول أو مصلحة الضرائب، يحولون دون مقابلة المرشحين للفقراء والبسطاء، حتى جاءت ليلة الانتخابات، ليلة توزيع الغنائم على السماسرة وتوزيع التوكيلات على المرشحين، ليلة الصفقات والمؤامرات والدسائس. هذه الليلة شهدت خروج الوزير من دواره بعد أيام اختفى فيها عن العيون، خرجَ ليوزّع الأموال على السماسرة كل واحدٍ وثقله وثقل الأصوات التي يسيطر عليها، ولكي يوزّع أيضاً الحشيش والأفيون على السماسرة الذين أدمنوا هذه المخدرات أو أصحاب المزاج الذين يتناولون هذه الأشياء بعشق. يمشي

١ الكرة الشَّرَاب: كرة يصنعها الأطفال الفقراء من قطع قماش قديمة.

الوزير في الطرقات مدّعياً التماسك وعدم الاكتراث بما حدث، يعطي هذا خمسين جنيهاً، وهذا فرش حشيش[1] بني اللون، وهذا قطعة أفيون سوداء ملفوفة في ورقة سلوفان شفافة ناعمة، وهذا خمسمائة جنيه، وهذا ألفاً، وهذا ألفين، ويؤكّد على يقظة من معهم توكيلات ويحذّرهم من المرشحين الملتحين، ثم يعود إلى الدوار ليأمر بتجهيز الأكل والشرب والدخان للجان الانتخابية. يظل طوال الليل هكذا، يجري مكالمات تليفونية من تليفونه المحمول الأنيق...

تزور سنية لواحظ الخيّاطة، تتعانقان بحرارة، تجلس سنية على قطع القماش الكثيرة التي تنتشر على الحصيرة التي تتوسطها لواحظ وماكينتها السينجر. تبارك لواحظ لسنية وتدعو لها أن تشاهده عريساً حتى تحيك له الجلباب الأبيض ولعروسه الرُّومية[2] البيضاء، ثم تعطيها بعض قطع القماش الرجالي. تأخذ سنية القطع وتعود إلى بيتها بعد أن تشرب معها الشاي وتحكيان عن فحولة حميد الجنسية التي لم تخيّب ظن لواحظ. تعود سنية وهي تتمنّى أن تصل بسرعة لتفرش الحصيرة وتحضر الإبرة والخيط وتبدأ بخياطة جلباب لولدها القادم، وما هي إلا دقائق وتصل إلى الرهبة، تمسك بسرعة حصيرة حلفا، تفرش الحصيرة، تسحب الإبرة والخيط من أعلى الجدار، تجلس، تخرج قطع القماش، تضع الفتلة في فتحة الإبرة، تمسك قطع

١ فرْش الْحَشِيش: أصبع الحشيش.

٢ نوع من الملابس، ناعم جداً، ترتديه الفتيات في الأعراس.

القماش، تبدأ الخياطة. يُؤذَّن لصلاة المغرب، تتوقف عن الخياطة، فهنا الجميع يعتقد بالمقولة التي تقول: "اللي يخيط في الضلمة يبقا زي اللي هايخيط عينين الميتين؟!" ولأننا نحب موتانا ونجلّهم ونعظّمهم فإن سنية تغرس إبرة الخياطة بالفتلة التي تتدلى منها في قطعة قماش كبيرة ثم تضعها جانباً وتؤجّل صنع جلباب جديد لولدها القادم حتى صباح الغد...

يذهب الوزير هنا وهناك حتى تستقر به الحال أمام لجنة المدرسة الابتدائية، يستقبل أعضاء اللجنة من موظفين ومستشارين ورجال شرطة بترحاب وكأنهم أصدقاؤه. وبعد دقائق تُفتح الصناديق في حضور بعض من ينوبون عن المرشحين وفي حضوره، وعندما يخرج يجد بعض أقاربه من الشبان الملتحين المؤيدين لمرشحي "الحرية والعدالة" والسلفيين متحفزين، ينظر إليهم في توعّد ويقف وسط بعض أقاربه الموالين له حتى تأتي سوهاجية أم قناوي، تلك السيدة السمراء الحافية القدمين، وهي تلفّ نفسها بالطرحة السوداء، وتبتسم من قلبها وتخطو بسرعة. يأمرها الوزير بأن تعطي الحاج فتوح رمز السمكة ويحذرها من إعطاء صوتها للسنية، وفي طاعة تقول له السيدة:

– حاضر يا وزير!

يتقدّم ابنها قناوي الواقف وسط الملتحين بلحيته المتوسطة الطول التي أطلقها بعد الثورة ويقول لها في همس وحذر وخوف من أن يسمعه الوزير:

– إدّي الميزان.

تتجاهل السيدة ولدها الملتحي وتدخل اللجنة لدقائق ثم تخرج. يستوقفها ولدها الملتحي بالقرب من الوزير ويسألها أمام زملائه من الملتحين وهو مبتسم وبثقة من أن أمه قد صوّتت لمرشحيهم، وربما بقليل من الكبرياء:

– عطيتي مين يا سوهاجية؟

تبتسم وهي تمسح الحبر الفوسفوري عن أصبعها، وذلك عندما تحكّ أصبعها بجدار المدرسة الطيني ثم تحكّه بطرحتها السوداء ثم تنفخ فيه، وتقول له:

– عطيت السمكة زي ما الوزير قالي يا واد القحبة.

يضحك الوزير بصوتٍ مرتفع. تخطو سوهاجية مسرعة. يغضب ولدها الوحيد الملتحي قناوي وتحمرّ عيناه، يشدّها بعنف من قفاها وطرحتها، يصفعها صفعةً قوية على خدّها، تتطاير دموعها من عينيها، تسقط طرحتها عن رأسها، يظهر شعرها الأبيض الأكرت[1] القصير. تلتقط الطرحة بسرعة، تغطّي رأسها، تدعو على قناوي وهي تقول بحرقة:

– تتنشر في مفارق طرق يا قناوي يا واد سوهاجية.

يرى الوزير ذلك، يتقدّم نحوها مسرعاً، يربّت على كتفيها ويطيّب خاطرها، ثم يخطو ناحية قناوي وينهال ضرباً على هذا الولد الآبق دون أن يردّ عليه أو يدافع عن نفسه، ولا من معه من الملتحين، فعميرة يتظاهر بأنه يتحدث حديثاً مهمّاً في تليفونه المحمول، أما هشام فقد

---

١ الشعر الأكرت: الشعر الأجعد.

رقَّ قلبه لما حدث وبرزت دمعةٌ في زاوية عينيه لكنه انكمش داخل نفسه ولم ينظر ناحية الوزير، أما هذا العبد المسمّى قناوي الذي صفع أمه سوهاجية على خدّها من أجل مرشحه السلفي فإنه ينظر إلى الأرض ويطأطئ عنقه ويتجه ناحية الجدار ويجلس وهو يدخن بحرقة. إنه ولدٌ غريب ويعيش في حماية عائلة أبو الشامات، ورغم أن أباه وأمه وأخته ظلوا طيلة أعمارهم يخدمون عائلة أبو الشامات ويتمنون رضاهم بأي شكل، إلا أن الثورة جاءت واعتقد قناوي أنه بمجيء الثورة يمكنه التمرد على سطوة وبطش وتحكم الوزير وعائلته وأي عائلة أخرى، وصنع مجدٍ جديدٍ يكون فيه السيد، ويكون رأسه فيه برأس الجميع[1]!!

تمرّ الساعات والمرشحون يأتون ويذهبون، والملتحون ذوو الجلاليب البيضاء الغريبة العجيبة واقفون متربّصون باللجان وهم يُفهِمون البسطاء أنّ من يعطِ صوته للمشايخ سيدخل الجنة ومن يعطِ صوته لغيرهم سيدخل النار. ولا يكتفون بهذا فقط، إنما كانوا يأتون بالناس في سيارات خاصة لا نعرف من الذي يدفع أجرتها، خصوصاً وأنّ معظمهم فقراء باستثناء عميرة، لكن عميرة بخيل. يأتون بحفاة وغاضبين ومهمّشين وباحثين عن مكانة ما. في المقابل كان الوزير وأبناء عمه ينقلون النساء والعواجيز[2] وسكّان الأطراف في سياراتهم الملاكي أو في مقطورات المحاريث الآلية أو التكاتك[3] الهندية

١ بمعنى: يكون نداً للآخرين.

٢ العواجيز: العجائز.

٣ التكاتك: مفردها "تكتك"، وهي آلية أصغر من السيارة وأكبر من الدراجة البخارية.

والصينية التى ملأت القرية مؤخراً. لكن هناك فرق بين من أتى بهم الملتحون وأتى بهم الوزير، فالذين جلبهم الوزير كانوا أنيقين ويبدو عليهم الثراء والراحة وأقلهم يبدو عليه الستر والرضا، أما مؤيدو السنية فيبدو على وجوههم الغضب والأزمات النفسية والفقر والحاجة والجهل!!

تمرّ الساعات ثقيلةً على الجميع، ويأتي المغرب بشفقه الجميل وهو يعانق النخيل، وفي همس يطلب مندوب المرشح الإخواني من المندوبين الآخرين تقسيم الأصوات المتبقية. يخرج مندوب الحاج فتوح ويستشير الوزير في ذلك، فيقول له الوزير إنه موافق شريطة أن يأخذ الحاج فتوح نصف الأصوات والباقون يأخذون النصف الأخر. يدخل المندوب ويعرض على المندوبين الآخرين ذلك فيرفض الجميع ذلك. وبعد قليل يحلّ الظلام، وفي التاسعة ينتهي موعد اللجنة ويبدأ فرز الأصوات. ساعات وتظهر النتيجة وينجح مرشحو "الحرية والعدالة" والسلفيون، ويرقص مؤيدوهم في الشوارع والطرقات وأمام رهبة الوزير وفي ساحة جامع الشيخ سلمان أبو علي، ويطلقون الأعيرة النارية من بنادق لا نعلم من أين أتوا بها، ويهمس بعضهم لبعض بأن الأيام القادمة لهم، وعليهم أن يظلوا مسيطرين ومتحكمين فى الناس، بينما الوزير يغضب، ويذهب إليهم في الجامع بعد أن تجمّعوا كلهم فيه، وكانوا لا يزيدون على العشرين في قرية تعدادها يزيد على العشرة آلاف مواطنٍ. يصل الوزير، يلمح مرسي جالساً على الدكة وسط أقاربه وأصدقائه، يمر بسرعة دون أن يلقي السلام، وأمام باب الجامع

يخلع حذاءه الجلدي الثمين ويدخل الجامع ويأمرهم بالكفّ عمّا يفعلون من فرح ورقص وتهليل وتكبير داخل بيت الله. يشاهد مرسي ذلك وهو جالس أمام دواره، يفرح بما يحدث من شقاق بين الوزير والملتحين ثم يأمر أخاه بأن يشغِّل التليفزيون لكي يستمتعوا بمشاهدة قناة "تت" المتخصصة بالرقص الشرقي، وبالفعل يقف أخوه ويمسك الريموت كونترول[1] ويشغل التليفزيون وإذ بالتليفزيون يبث خبراً عبر قناة "الجزيرة" عن مجزرة بورسعيد التي حدثت عقب مباراة الأهلي والمصري وراح ضحيتها أربعة وسبعون قتيلاً وأصيب المئات وعمّ الذعر والخوف وانتشرت في المشهد صور الدماء والنار والرعب وكأننا في مشهد من مشاهد حربٍ داميةٍ...

---

١ جهاز التحكّم عن بعد.

(١٦)

تزداد النباتات خضرةً، وتتمايل مع نسيم أواخر مارس عيدان الملوخية الخضراء والبامية ذات الأوراق الشوكية في الأرض السمراء الدافئة، ويتخلص المواطنون من كرمشة الصقيع، وتطلب إناث الأبقار والجواميس العجول، وإناث الماعز تطلب ذكورها من الجداء، والخصوبة تخرج من الأرض الحارة، ويأتي الدفء مبكراً، ويتخلّص حميد من ملابسه الثقيلة ويكتفي بالسروال القطني والفانيلة والصديري، وتتخلص سنية من غطاء رأسها وثوبها الثقيل، ويقتربان من بعضهما أكثر وأكثر، وتزداد أحلامهما، ويعمّ الفرح بيت حميد بعد سنين طويلة من اليأس والقنوط، ويستعيد حميد شقاوته ورغبته في الحياة وحبّه لسنية وقربه منها. لكنّ سنية التي تعاني من هزال طوال اليوم وحرقةٍ في البول الذي ينزل رمادي اللون، والتي تعاني من تآكل وتورّم أصابع يديها ورجليها، كلما اقترب منها حميد تصرخ وتتوجّع، فيقول لها حميد ضاحكاً:

– واد شقي زي أبوه.

تضحك سنية، لكن شيئاً فشيئاً تزداد الآلام التي تشعر بها ويزداد

قلق حميد على سنية مع تكرار شعورها بالوجع والألم في بطنها. في البداية يعتقد أنها تمرّ بمرحلة النفور من الرجال في شهور الحمل الأولى، لكن عندما يتكرر نفورها منه، ومن الأكل والشرب، وعندما يتكرر هموده جسمها والهزال الذي تشعر به، وعندما تتزايد آلامها وأوجاعها التي وصلت حدًّا لا يُحتمل؛ عندما تصل إلى هذه المرحلة يقلق حميد قلقاً كبيراً ويقرر أن يأخذها ويذهب بها إلى الطبيب لكي يطمئن عليها، وبسرعة يهرس بين يديه أوراق الملوخية التي جففتها الشمس، ويضع ما يهرسه من الملوخية في غربال، يهزّ الغربال بين يديه هزاً خفيفاً وينفخ بأنفاسه فيه، ثم يذهب إلى صفية بائعة القصب فيبيعها صفيحتي ملوخية ناشفة بجنيهات قليلة، ويفكّ قيد حماره العجوز ويضع المرشحة القماشية على ظهر الحمار، ثم يركب متّجهاً إلى المستشفى، وخلفه تمشي سنية وهي تتوجّع وتعصر جلد بطنها بيدها...

تكثر الأموال في يد منى، فتشتري الطعام الذي تشتهيه، وتطبخ نوعاً واثنين وهي التي عاشت عمرها تغمِّس الخبز بالملح، وأحياناً كثيرة كانت لا تجد الملح، وأحياناً لا تجد الخبز. تأكل هي وصفية بشراهة. توقف باعة الملابس الذين يمرّون على البيوت بهدف بيع الأقمشة لهن، وتشتري ما كانت تشتهيه في الماضي، وتشتري لصفية أيضاً. ثم يمرّ من أمام البيت بائعٌ للخردوات يبيع للنسوة أدوات تجميلٍ وعطورٍ، فتشتري منى. ويأتي الليل فتجد نفسها قد أكلت ما اشتهت، ولبست ما تمنت، وتزيّنت بما يجعلها أنثى أخرى. وفجأةً

يطرق طارقٌ على البوابة، تهرول مسرعةً إلى البوابة، وعندما تفتح البوابة تجد بمبة سائق السيارة الميكروباص الذي يجلب لها الأموال من ليبيا، الجريء الذي يمتلك خفة دم ليس لها مثيلٌ. ينظر بمبة إليها بشهوة، يقتحمها بنكاته الجريئة، يجذبها من يدها ويضع فيها الدولارات الخضراء. تترك يدها مستمتعةً بدفء كفّه، ينهال عليها غزلاً وكلاماً ناعماً، تأخذ الدولارات ثم تسحب يدها من بين أصابعه الطويلة العفية وتدخل وهي تحس بسائلها المبارك ينساب من بين ساقيها رطباً لزجاً لا هو باردٌ ولا ساخنٌ. تدخل حجرتها مباشرةً، تنام على السرير، تنظر في المرآة الصغيرة التي اشترتها مؤخراً، وتفاجَأ بأخت فريد تقف خلفها وتراها وهي تتحسّس بطنها في شبق وتغمض عينيها وتحلم بأنها تتأوّه بين ذراعي الأسطى بمبة. تصرخ صفية الخرساء وتشير بيدها بعنف إلى منى ثم بحزم وصرامة تطلب منها أن تعطيها الدولارات، لكنّ منى تعتدل وتضمّ الدولارات إلى صدرها وتقول في حزم:

– دي فلوس جوزي.

أما الوزير فإنه يشعر بالوحدة رغم قرب زوجته الأولى أحلام منه وحبها له. صحيح أنها عوّضته عن غياب فيفي وفجّرت فيه مناطق الشهوة الكامنة وأنسته فيفي، لكنه يشتاق إلى ولديه الصغيرين البريئين الجذابين اللذين رآهما بعد سنين من الحرمان. أحلام تملك حلولاً لكل مشاكل الوزير إلا مشكلة الأولاد، لهذا، وبقرار فجائي انفعالي، يقف الوزير ويخرج من شقته ومن الدوار ويمشي في الشارع يلقي

السلام على هذا وذاك وتلك، ويضحك مع هذا وهذين وهؤلاء، يتوقف مع تاجر سماد صغير السن كبير الكرش اعتاد أن يبيعه الأسمدة الكثيرة التي يأخذها عن حيازات وهمية يعطيها له مدير الجمعية الزراعية بعد أن يأخذ منه رشوة، يعقد صفقة مع هذا التاجر. ثم يلتقي برجل طويل ونحيف ومحني الظهر كان قد باعه قيراطاً بثمانين ألف، بنى الرجل القيراط بيتاً والآن الرجل يحتاج إلى طريق إلى البيت لا تزيد على مترين، فالبيت لا طريق له. يوافق الوزير لكنه يقول: المترين بمائة ألف. يندهش الرجل، ويتعجب، ويعترض. يتركه الوزير واقفاً في مكانه ويمشي، ولأن الرجل يحتاج المترين كطريقٍ منها يدخل ومنها يخرج ومنها يُمرر ماسورةَ المياه إلى البيت، ومنها تمرُّ أسلاكُ الكهرباء، ولأنّ الرجل يعرف أن القيراط بدون المترين لا يساوي شيئاً يوافق ويرضخ للسعر الذي حدّده الوزير. يجري الرجل خلف الوزير حتى يلحق به، يمشي الوزير والرجل يتوسل إليه ويعده بأن يحضر له العقد والمال بعد المغرب. يخبره الوزير وهو يمشي مسرعاً بأنه سيكون في انتظاره. يستمر الوزير في المشي حتى يصل إلى بيت منصور عبيد. يلمحه منصور وزوجته وأولاده قادماً من بعيد وهم جالسون أمام بوابة بيتهم، يهرولون بسرعة نحوه مرحّبين به معلنين اشتياقهم إليه. تمرّ حملة[1] سيارات شرطة بجوارهم، يشير قائد الحملة محيياً الوزير، يردّ الوزير بصوتٍ مرتفع:

– اتفضل يا باشا!

يشير قائد الحملة بإصبعه للوزير بما يعني أنّ كل شيء على ما

١ حملة: موكب.

يرام، يلوّح له الوزير محيياً، تختفي سيارات الشرطة. يطلب منصور من الوزير أن يجلس على الدكة بجواره، لكنه، وهو يقف ممسكاً بحائط البوابة الطيني المخلوط بدم الذبائح، يقول لفيفي الجالسة على حصيرة في صحن البيت:

– هاتي العيال وتعالي.

بسرعة تقف فيفي، تلبس ثوبها الوردي المعلّق على الجدار خلفها، وبسرعة تحضر لها أمها صرّة مجوهراتها، تلبس مجوهراتها بسرعة، تحمل ولدها الأصغر على صدرها، وتجرّ الأكبر خلفها، تخطو خارجةً خلف الوزير، والناس مندهشون من الوزير ومن تصرفه ويتساءلون في عجب شديد: لماذا يعيدها هكذا بسهولة ويسر؟ ولماذا لم يطلّقها كما توقع كل أهل القرية بعد الفضيحة؟! لكن هنا قلة من الناس اعتادت أن تسيطر على الكثير من الناس، ولو فكّروا في أن يمنحوهم حريتهم لتشبّثوا بهم ورفضوا الحرية، فهم يرون في سادتهم الحماية والسند. يمشي الوزير في الشارع الموصل من بيت نسيبه منصور حتى دوارهم الواسع المهيب، وخلال ذلك يعرف أن الشرطة ذهبت إلى بيت خليفة أبو زينهم تاجر الممنوعات وقبضت على سعد ابنه الصغير متلبّساً وهو يبيع الخمور والبيرة والحشيش والبنادق والمسدسات والذخيرة والسنج[1] والخناجر والسيوف، وحرّزت بالإضافة إلى هذه الأشياء بندقيتين آليتين وآر بي جي وثلاث قنابل يدوية وصندوق ذخيرة، فهذه الأيام الأسلحة تُباع في المحال علناً كأكياس الشيبس والكاراتية!!

---

١ السّنَج: مفردها "سنجة"، وهي أكبر من الخنجر وأصغر من السيف.

يفرح الوزير بخبر القبض على سعد ويعلن أنّ هذه هي البداية لخلاصه من كل معارضيه. يُخرج تليفونه المحمول ويضع ساقاً على ساق، ثم يتصل بالعريان المخبر الذي يؤكّد له الخبر عبر التليفون. يسأله الوزير عن خليفة والد سعد وزينهم، وهل قُبِض عليه أم لا؟ يجيبه العريان بأنهم لم يعثروا عليه، لكنه يطمئنه بأنه لن يتركه. يغضب الوزير، خاصةً وأن وائل الأسمر النحيل، الذي جاء لأبيه الحاج خزام بعد سبع بنات سمر غطيس، يتوقف بفرسه أمامه ويؤكد له أن خليفة هذا موجودٌ الآن مع مرسي. يظهر الضيق على الوزير، بل ويزداد ضيقه عندما يخبره وائل أنّ مرسي قد تحالف مع العيال السنية، ثم يهزّ قدميه على بطن حصانه وينطلق ناحية الدوار. أما الوزير فيهزّ كتفيه في ضيق ويستأنف كلامه في التليفون المحمول، يشكر العريان ويعده بأنه سيحضر إلى مركز الشرطة في الغد، وأنه سوف يعطيه مكافأته، ثم يغلق تليفونه المحمول في توتر ويخطو عائداً إلى دوارهم!!

طوال الطريق لم ينطق الوزير بكلمة واحدة، ولم تنطق فيفي، هو يمشي ممسكاً بيد ولده الأكبر، وهي تمشي في كبرياء، الأرض تهتزّ تحت قدميها، تمشي وهي تنظر إلى كل من تراه في كبرياء دونما خجل. البعض يقول، في سرّه طبعاً، إنّ عيونها بيضاء ولا تخجل، والبعض ينسب هذا إلى قلّة الأصل، والعقلاء يدافعون عن الوزير ويتساءلون: كيف يتخلى عن ولديه وقد رآهما بعد سنين عذاب؟! ويبدو أن هذا هو السبب المؤكد الذي جعل الوزير لا يطلّق زوجته فيفي التي فضحته، بل يعيدها وولديها إلى الدوار. المهم، يمشي الوزير وتمشي فيفي خلفه حتى يصلا باب الدوار، فيفاجَأ بأخيه

الأصغر أبو زيد خارجاً وبندقيته الآلية على كتفه. يتوقف أبو زيد مكانه ويستنكر عودتها بعد ما حدث منها، لكن الوزير يتجاهله ويهز كتفيه ويسحبها من يدها وهو يقول لها:

– تعالي، بيتك ومطرحك.

تدخل فيفي خلف الوزير، يراها أبوه وأمه وأحلام، يجري الولدان ناحية جدتهما وأحلام، تحضن الجدة الولدين بحب شديد، تحضنهما كذلك أحلام بأمومة متخيلة، تسلّم عليهم فيفي، لكنّ الاستقبال فاتر والسلام فاتر، تأخذ ولديها وزوجها وتصعد مسرعةً إلى شقتها. تعترف أحلام بأنها لم تقصّر مع الوزير، فيردّ الحاج عاصي أبو الوزير بأن ابنه الوزير قد وقع تحت سيطرة فيفي بما تقدّمه له من صراخ شديد أثناء الجماع، ومن أوضاع تراها الأخريات حراماً، ومن اللعب على أنه فارس الفرسان حتى ولو لم يفعل شيئاً أو يستغرق جماعه خمس دقائق. تطلب منه أم الوزير أن يكفّ عن هذا الكلام الخارج، يضحك الأب، وفي أدب تذكّره أم الوزير بأن الوزير يشبه أباه الذي كثيراً ما تسلّق بيوت الجيران طمعاً في النساء الجميلات، وكثيراً ما قبض عليه الناس متلبّساً مع سيدات وضيعات. يضحك أبو الوزير ويخرج، لكنه يتوقف عند البوابة الكبيرة ويلتفت إلى الخلف ويقول لزوجته:

– بس أنا عمري ما قلّيت عن النص ساعة.

أما الوزير فيصعد، وتصعد خلفه فيفي عبر سلّم عريض من الرخام، ثم توصد الباب برفق خلفها وتنزع عباءتها وتتعمّد أن تظهر له ثدييها الكبيرين الجميلين، ثم تجلس عند قدميه، تنزع عنه حذاءه الجلدي

الفاخر بأنوثة قاهرة، ثم تنزع عنه جوربيه الناعمين بأنوثة أشدّ فتكاً، وفي حنّيّة شديدة تقنعه بأنّ المقطع الذي سمعه تركيب في تركيب، وأنها لم تخنه. يُظهر الوزير اقتناعه بذلك ثم يختفي وسط مفاتنها متوسّداً ثدييها الدافئين، متغطياً بشعرها الناعم الأصفر كالحنّاء، الطويل كذيل فرسٍ عربية أصيلة...

في المندرة، وهما يشربان القهوة، يرفض أبو زيد ما فعله الوزير، لكنّ الأب يحكي لابنه الأصغر عن انهيار الحزب الوطني، ووضع مبارك في السجن، وعن ضياع كرسي البرلمان من الحاج فتوح ومن عائلة أبو الشامات، ويطلب منه التهدئة والكفّ عن تصعيد المشاكل، ويؤكد له أنهم لو وقعوا في مشكلة فربما تنكشف حالهم وتسوء مكانتهم. لكن هذا الجيل الذي وُلِد ووجد نفسه سيداً للقرية لا يدرك ذلك، أو ربما يدرك ولا يريد أن يصدق، ويصرّ على أن يكون السيد كما كان قبل ثورة ٢٥ يناير.

يرى مرسي ما فعلته الشرطة في بيت خليفة وزوجته وابنه سعد، لكنه يخرج لسانه بلامبالاة ويصدر أصوات استهزاء. يحكي أصحابه عمّا فعله الوزير، وكيف أنه أعاد فيفي إلى الدوار رغم أن الجميع توقع أنه سيطلّقها، وربما سيقتلها ويقتل أهلها بعدما دنّست ثوبه الغالي المعطّر. يضحك مرسي ويزمّ شفتيه، ما يعني أن الوزير فعل ما فعله لكي لا يعادي أهل فيفي، خاصةً وأن بيوتهم مواجهة لدوار مرسي. يندهش الحاضرون من أصدقاء مرسي، يوزّع عليهم الحشيش،

يطلب منهم أن يدخنوا وينسجموا ويتركوا له حوار الوزير، فهو كفءٌ له. وقبل أن ينهي كلامه يلمح شباب السنية ذاهبين إلى جامع الشيخ سلمان أبو علي ليصلّوا المغرب، ويلمح في مؤخرتهم ولداً في الخامسة عشرة من عمره، أبيض البشرة، سمِح الملامح، يكاد شعر لحيته يظهر. يسأل مرسي أخاه عن هذا الولد فيجيبه أخوه قائلاً:

– دا هشام خال الوزير.

يصفّق مرسي بسعادة وهو يقول:

– كده اللعب هايحلو.

ثم يأخذ سيجارة حشيش مشتعلة من أخيه ويأخذ منها نفساً طويلاً ويقول:

– كده هاتحلو يارجاله.

(١٧)

في بيت رامي المجاور لبيت منصور عبيد تجلس أشجان شاردةً حزينةً مهمومةً وهي تتمنى العودة إلى بيتها. تطلب ذلك من زوجها، يمسك الزوج طرفَي ياقة جلبابه، يجذبهما بكل ما أوتي من قوة، يمزّق زوجها عدلي عبد السيد جلبابه إلى جزءين ويرجوها أن تكفّ عن ذلك وتنسى هذا الأمر نهائياً، ويتوسّل إلى أمها، وهو يقبّل يدها، ويرجوها أن تقنعها بضرورة طرد هذه الفكرة المجنونة من رأسها، ويؤكد لها أنه سيظل بعيداً عن عيون الوزير، فهو يخاف أن يراه ويقتله أو يقتلها أو يقتل أبناءه وبناته الصغار. تتجاهله أم رامي وتتحامل على نفسها حتى تقف بصعوبة ثم تخطو خطوات حتى تصل إلى الفرن الطيني الكائن في آخر البيت، الذي لم تشتعل فيه النار منذ أن انتشر هذا المقطع اللعين؛ مقطع رامي وفيفي. تمد يدها فوق الفرن، تجد نصف شفرة حلاقة بها بعض الصدأ، تعود من حيث جاءت، تجلس مكانها على حصيرة حلفا متهالكة وحولها بنات وأطفال أشجان يلعبون ويتشاجرون مع بعضهم البعض...

أما نورا أخت رامي، زوجة شرف (أخو فيفي)، فلقد صار لونها

شاحباً بعد أن خسرت زوجها الأسطى شرف، وبعد أن خسرت بيتها وشقتها، وجاءت مضطرةً ومنكسرةً لتعيش هنا، وخسرت أولادها وشرفها، وصارت لا تستطيع أن ترفع عينيها في وجه أحد. تربت أمها على كتفها، ثم تشير إلى جدي صغير يلعب مع نفسه، وهو يتقافز في الهواء برشاقة وكأنه يرغب في معانقة نسيم أبريل، وتطلب منها أن تُحْضِر هذا الجدي الصغير حديث الولادة. يتقافز الجدي أكثر، تقف نورا، تخطو برشاقة كغزالٍ بري جميل، وهي تنفض ما علق بثوبها من تراب ناعم، تمد يديها ناحية الجدي، يهرب الجدي ويتقافز ويصدر أصواتاً عالية ثم يخرج لسانه لها. تغتاظ نورا، تجري خلفه، يسرع وتسرع حتى تمد يديها وتمسك الجدي وتقدمه لأمها وهو يصرخ ويتمرد ويثور. تمسك أمها صدر الجدي بقوة تكاد أن تخنقه، ثم تطلب منها أن تمسك ساقيه الخلفيتين جيداً. تمسك نورا ساقي الجدي بغضب، تمسك الأم خصيتي الجدي الصغيرتين المتدليتين بين ساقيه، تمرّر شفرة الحلاقة على الخصية الأولى، يصرخ الجدي ويثور ويتمرد وتسيل الدماء منه، تمسح أم رامي وهي عابسة الوجه الدم السائل عن الخصية الأولى، ثم تمسك خصية بيضاء بالداخل وتسحبها بعنف، يصرخ الجدي ويثور ويهتز كل جسمه مرتعشاً، ترمي الخصية بعيداً، يأتي الكلب النائم عند البوابة الخشبية وبسرعة يأكل الخصية الأولى ثم يجلس منتظراً المزيد في ترقب وهو ينظر إلى عين أم نورا ويديها. تسحب الأم الخصية الثانية، ترميها للكلب، تطلب بعض رماد الفرن من نورا. تقف نورا، تخطو للفرن، تنحني، وبأصبعيها تمسك بعض تراب الفرن الرصاصي الناعم، تضع هذا التراب أو الرماد على الجرح

في الخصيتين، يصرخ الجدي، تترك الجدي، يجري الجدي ناحية الحوش وهو يصرخ ويثغو.

أمّا تهاني الجميلة الرقيقة، زوجة رامي، فقد عادت إلى بيت أبيها في عزبة قُطّاع الطرق، عادت وجرحٌ كبيرٌ في روحها وسؤالٌ يكاد يقتلها ألا وهو: لماذا أحب رامي زوجها فيفي وهي أجمل منها وأفضل نسباً؟!!

تمرّ الأيام، ورغم عودة فيفي إلى دوار الوزير إلا أن مشكلات تهاني ونورا وأشجان لم تُحل، بل إنها مؤهلة للتصعيد أكثر وأكثر. أما رامي فتتردد حوله الأقاويل، البعض يقول إنه خرج من البلد هارباً وهو يرتدي نقاباً كالنساء، ثم سافر سراً إلى حلوان ليعيش عند أخٍ له يكبره يبيع التين الشوكي على عربة يد خشبية على أرصفة حلوان اسمه عبد الجليل؛ والبعض الأخر يقول إنه هرب في عربة لنقل المواشي من قريتنا إلى أسيوط، ومن أسيوط ركب سيارة أجرة صغيرة متجهة إلى الواحات عند أخيه الأكبر عطّاف الذي تزوّج بنت خالته التي تسكن في الواحات الداخلة، وعاش معها في بيتها، وزرع لها عشرة فدادين منحتها لها الحكومة منذ عشر سنوات، أيام كانت معنية بالشباب. تكثر الأقاويل وتكثر التكهنات، لكنّ أمه تلعنه أمام الناس وتلومه على ما فعله مع الوزير، وتحمّله مسؤولية طلاق زوجته وطلاق أشجان وطلاق نورا وطلاق فيفي. ورغم أن نورا قد حكت لها عن عودة فيفي إلى الوزير إلا أنها رفضت أن تصدق وأكدت أنه سيطلّقها مهما حدث. إنها غاضبة عليه، وهذا هو موقفها المعلن منه، لكن موقفها الخفي أنها أمٌ تفضّل أن يظل ابنها مختفياً عن البلد لأنها متأكدة من مقتله والتمثيل بجثته على يد الوزير لو ظهر في القرية مرة أخرى...

وكأنَّ أحداً سكب ماءً مثلجاً على حميد السقا، وكأنَّ زوجته سنية أُصيبت بسكتة قلبية، يلملم حميد قواه ويسأل الطبيب العجوز بتلعثم:

– أنت ع تقول إيه؟

– لازمن تعمل الأشعة دي وبسرعة.

– فيه إيه؟

– الكبد الظاهر فيه مشكلة.

– طب والحمل؟

– مفيش حمل.

– إزّاي؟

وهما منكسران حزينان يعودان إلى البيت، حميد في المقدمة ووجهه قد كساه السواد، وسنية خلفه وقد اكتسى وجهها الجميل بصفرةٍ غريبة. ينظر حميد حوله وإذ بجغرافيا القرية قد تغيرت، وبدأت بيوتٌ مبنية بالمسلّح تخرج من حزام القرية وتظهر بشكلٍ عشوائي وسط حقول القمح والبرسيم الخضراء الجميلة. لقد غطّى الزلط والرمل والأسمنت على عيدان القمح والبرسيم الخضراء. ينظر حميد بملامح باردة حتى يصل إلى بيته، وهناك يجد الجيران والأصحاب ينتظرونه بكلمات تحثّه على الصبر، لا يدري متى عرفوا، ومن الذي أخبرهم بعدم حمل سنية وبمرضها بالكبد.

انتشرت تجارة السلاح على يد مرسي أبو كرسي، وحرص الناس على اقتنائه لدرجة أن حميداً كان يرى الأطفال يمرّون من أمام بيته وهم يمسكون الآلي والجرينوف والكلاشينكوف، ويمرون وهم يركبون

الموتوسيكلات المسروقة والتكاتك في النهار، وحميد جالس أمام بيته يرتشف الشاي الثقيل؛ يرى ذلك لكنه يتجاهل كل هذا ويفكر في كيفية الحصول على الأموال التي سيعالج بها زوجته، ولأنه لا يملك قيراطاً، ولا بقرة ولا جاموسة، يزداد حزنه. تطلب منه سنية، وهي تقاوم الأوجاع، أن يصرف النظر عن أمر علاجها ويتركها تواجه مصيرها الأسود، لكنه يرفض ويقرر أن يجمع كل ما لديه من ماعز وبط وإوز وحمام ودجاج ويذهب إلى السوق ويبيعها ويذهب بزوجته إلى أسيوط ويعالجها مهما كلفه الأمر...

يتعاطف الناس مع حميد عندما يعلمون بمرض زوجته، يقدّم بعضهم مساعداته لحميد وزوجته لكن حميداً يشعر بأنه محتاج إلى مال كثير، ومن باب الاحتياط والحذر يطلب ألفي جنيه سلفة من صفية الخرساء بنت أخيه. تذهب صفية مع عمها حميد لتحضر المال، تبحث في البيت عن منى زوجة أخيها فريد فلا تجدها، تبحث عن المال فلا تجد مالاً، تهرول يميناً ويساراً وللداخل والخارج وهي تصرخ وتنادي على منى وتبحث عن أموال أخيها بجنون حتى تقع عيناها على آثار إطار سيارة ميكروباص منحوتة في الأرض الرملية أمام عشّتهم، وتسمع من بعض النسوة والجيران أنّ منى هربت مع بمبة وأخذت معها كل الأموال التي أرسلها لها زوجها فريد من ليبيا!!

يشعر حميد بالإهانة وينحني ظهره قليلاً، ثم يذهب مع صفية بنت أخيه ليبحث عن منى في بيت الأسطى بمبة لكنه لا يجدها ولا يجد بمية، يبحث عنها في كل شوارع وبيوت القرية ولا يجدها، ثم يعود ليطمئن على زوجته سنية المريضة...

(١٨)

يؤذَّن لصلاة العصر، ويخرج الأطفال من بوابات بيوتهم فرحين حاملين فطائر القمح البيضاء المكسوة بالمرق الأحمر ذي الرائحة الممتعة فوق رؤوسهم المجعّدة وهم يصيحون:

– الدرق بالمرق...

يكرر الأطفال صياحهم سعداء ويتقافزون بخفةٍ حتى يجدوا أنفسهم أمام العيال السنية ذوي الجلاليب البيضاء القصيرة واللحى الطويلة. ينهرهم السنية، يكرر الأطفال في سعادة:

– الدرق بالمرق...

يهمّ السُّنية بضربهم، يمنعهم هشام الجميل برفقٍ وابتسامٍ وهو يوضِّح لهم أنّ هؤلاء أطفالٌ لا يدركون ما يفعلون، ولو ضربوهم فلن يسكت آباؤهم. يصيح السُّنية بأن ما يفعلونه وثنية وكفر وخروج على صحيح الدين، ويهدّدون الأطفال من مغبّة التمادي في ذلك، لكنّ الأطفال يتجاهلونهم ويتقافزون في سعادة وهم يكررون:

– الدرق بالمرق...

يأتي الجيران نساءً ورجالاً ليصبِّروا حميد وسنية على ما حدث، يساعدونهما ببعض المال والطعام والطيور والغلال. تستسلم سنية للحزن والوجع، ويصنع حميد من الصبر درعاً وخوذة يقاوم بهما ما لحق بزوجته سنية من مرض، يلملم شتات فقره وقلة حيلته ويعقد العزم على ألاّ يترك زوجته فريسةً للمرض مهما كلَّفه الأمر. يحلّ الظلام وتنقطع الكهرباء كالعادة وتنقطع المياة المالحة، ونسمع صوت البنادق وهو يُسْكِت أصوات الزرازير ونقيق الضفادع ونباح الكلاب. يقال إن مرسي يقطع الكهرباء عن البلدة كلها ليُخرج كنزاً فرعونياً، ويقطعها مرة أخرى ليبيع الكنز، ويقطعها مرة ثالثة ليوزّع ثمن الكنز على عصابته، ويقطعها مرة رابعة ليفرغ شحنات سلاح قادمة له خصيصاً من ليبيا، ثم يرصّ السلاح في حجرات خاصة، يقولون إنه استطاع أن يملأ ثلاث حجرات بالآلي والجرينوف والكلاشينكوف، وإنه استطاع الحصول على دانتين وعلى ما يقرب من ثلاثين شاباً، منهم الهارب من أحكام قضائية مشددة، ومنهم من قرر دخول عالم الجريمة كنوع من الظهور والتميّز، ومنهم أخو خطيبته علاء مكي الذي جلب خلَفه هذه المرة أربعين شاباً مسلحاً بالجرينوف والبنادق الآلية. يمرّ الليل ولا تأتي الكهرباء، فقط قرقعة السلاح ونقيق الضفادع ونباح الكلاب، وأنّات سنية وأوجاعها التي منعت النوم عن حميد حتى جاءه صوت مؤذّن الفجر، فوقف ولملم الماعز والجداء والبط والإوز والدجاج والحمام وذهب إلى سوق القرية حاملاً كل هذه الأشياء على كتفيه وفوق ذراعيه!!

لم ينم الوزير، فقد ظلّ طوال الليل بملابسه الداخلية يتأمل فيفي وهي تهزّ ثدييها وردفيها، وترقص رقصاً خليعاً، وتغنّي أغاني خارجة، وتتحسّس جسده الأبيض، وتداعب مناطقه الحساسة، وتأخذه إلى عوالم لا يأخذه إليها سواها. أما أحلام المسكينة فهي تسمع ما يدور بين فيفي والوزير، تسمع وتندهش، تسمع وتبكي، تسمع وتجهِّز أطيب الطعام ثم تخطو إلى شقة فيفي، تدق الباب برفق، تسمع صوت فيفي وهي تسأل عن الطارق، تجيب بأنها هي وتخبرها بأن الطعام جاهز، تعود إلى شقتها، تفتح فيفي الباب وهي ترتدي روباً شفافاً قصيراً مثيراً، تأخذ الطعام. تستلقي أحلام على سريرها ودموعها على خديها، فهي تحب الوزير، ولكنها تشعر بأنها حُرِمَت منه، هي كنخلةٍ لا تثمر، وما أصعب إحساس المرأة الجميلة إذا أحست بأنها غير قادرة على الإنجاب، لكنها تخفف عن نفسها بأنّ كل مَنْ في البيت يحبها، لكنها تعود إلى البكاء والنحيب عندما تنظر إلى جوارها على السرير ولا تجد حبيبها بجانبها...

بعد أن يشبع الوزير من غنج فيفي، ينشغل بمواجهته لمرسي أبو كرسي، يتحدث هو ووالده، يرمي الوزير كلام والده وراء ظهره ويقرر الاستمرار في مواجهة مرسي مهما كلفه الأمر، فهو زعيم القرية، والناس أطلقوا عليه لقب الوزير لما له من نفوذ، وهو غير مستعد للتنازل عن لقبه هذا، وغير مستعد للتنازل عن مكانته مهما حدث. لهذا يفتش في دفاتره القديمة، ويعرف أن لهم قطعة أرض باعها جده

بثمنٍ بخس، ثم يذهب إلى الشاري ومعه ورقة من السجل العيني[1] وبعض رجال الشرطة، وبعد أخذ وردٍّ يشتري الرجل قطعة الأرض مرةً ثانيةً بمائة وعشرين ألفاً. ثم يذهب إلى خالته سارة، يدفع البوابة، يفاجَأ بسارة تجلس أمام هشام وهي عارية الرأس، شعر ذهبي طويل ومنساب على الظهر، وهشام يمشّط لها شعرها. يندهش الوزير، تقول له سارة إن هشاماً هو ابنها الأحب إلى قلبها. يتبسم ويؤكد لها أنها ما زالت حتى بعد أن كبر تعامله كالصبية. تنفي، وتطلب منه أن يجد له عروساً، فيقول لها: "العرايس على قفا مَنْ يشيل"، ويؤكد لها أنه سيزوّجه عروساً لم يتزوج مثلها أحد، ثم كعادته يقول لها كلاماً في الغزل، تضحك سعيدةً، يدَّعي أنه يمرّ بضائقة مالية، تفتح الدولاب[2] الجميل العتيق وتعطيه مبلغاً لا بأس به. يأخذ الوزير المال ويشتري به كله أسلحة متطورة وذخيرة، يوزّع الأسلحة على أخويه وأبناء عمه وخصوصاً وائل ابن عمه خزام، ويحدّثهم عن المواجهة المحتمة بينهم وبين مرسي، وخلال الكلام يذكر أحدهم هشاماً وعميرة وأقاربه السُّنية، يعدهم الوزير بأنه سيتوصّل معهم إلى حلّ يعيدهم إلى حضن العائلة مرة أخرى...

يرى حميد صفية بنت أخيه بإيشاربها الملون، وعينيها السوداوين الجميلتين، وخدودها الممتلئة وأسنانها البيضاء المرصوصة بعناية شديدة، وطولها الفارع، وتقاسيم جسمها الساحرة، يراها حميد

١ السجّل العيني: السجّل العقاري.

٢ الدولاب: الخزانة.

كغزالةٍ أصابها الصرع مرة واحدة، يناديها لا تردّ، يسألها لا تجيب، يمسكها من كتفيها ويهزها بقوة بين يديه فيهتز جسمها كما يشاء، وهو يسألها عمّا بها، فتنفجر غاضبةً، وهي تغرف التراب وتهيله على رأسها، وتبكي ضياع مال أخيها وزوجته، وحميد لا يدري ماذا يقول لها!!

في هذا التوقيت يُفْتَح باب الترشح لرئاسة الجمهورية ويعجب البعض برجل البوسترات حازم أبو سماعيل كرجل حاد في تصريحاته، وبعضهم يعجب بعمر سليمان كرجل دولة له هيبة ووقار، وبحمدين صبّاحي وكلامه عن الفقراء والعدل، وبعمرو موسى بكلامه المنمّق الراسي، لكنها أيام ويستبعد حازم أبو سماعيل وعمر سليمان وتنقسم أصوات القرية بين أحمد شفيق، الذي يؤيده الوزير، ومرسي الذي يؤيّده العيال السنية ويرون فيه فاتحاً جديداً لمصر وناشرَ الإسلام فيها ومقيمَ الخلافة، ويؤيده كذلك مرسي ليس لقناعته الدينية ولكن لأن اسمه يشبه اسمه، ولأنه ضد شفيق الذي يؤيده الوزير. وجزء من أهل القرية ينحاز لحمدين صبّاحي، وجزء لعمرو موسى، ويحتدم الصراع في المنادر والشوارع والمقاهي وأمام اللجان، وأيام قليلة وتجري الانتخابات، وتظهر نتيجة الجولة الأولى من الانتخابات، ولا يجد الناس أمامهم غير مرسي بملامحه الخشنة وكلامه عن العدل والمساواة والفقراء وسيدنا عمر، ووعوده التي زادت على الخمسين وعداً، وكان أهمها تسديد ديون بنك التنمية والائتمان الزراعي التي تورَّط فيها الجميع، والنهوض بحال المعلمين والموظفين، وشفيق

بصوته الهامس وملامحه الرقيقة، فينحاز الغالبية لمرسي. لكنّ الوزير ينحاز تماماً لشفيق ويؤكد أنه رجل دولة، ويحتدم الصراع بين الوزير من ناحية ومرسي والسُّنية من ناحية أخرى، بينما غالبية أهل القرية يضعون أيديهم على قلوبهم خوفاً من القادم المجهول!!

من مستشفى القرية الخالي من كل شيء إلى مستشفى البداري الذي يديره الدكتور مسعود الذي لا يكشف على أحدٍ ولا يأمر بدواءٍ ولا أشعةٍ ولا يخصّص سريراً لأحد إلا بالرشوة، حتى من يذهب إليه ليقيس نظره أو يأخذ شهادة طبية بعجزه ليصرف الضمان الاجتماعي الذي لا يزيد على المائة وستين جنيهاً لا بدّ له أن يدفع الرشوة وإلا فلن يأخذ الموافقة. حكى لي صديقٌ هذا الكلام، قلت له: لماذا لم تشكوه؟ قال لي إنه صبيحة اليوم التالي ذهب إلى مكتب المدير ليشكو الدكتور مسعود فوجده هو المدير، سأله المدير:

– عايز إيه؟

قال له صديقي وهو يبتسم ساخراً:

– أنا كنت جاي أشتكيك للمدير طلعت أنت المدير، عليه العوض.

ومن مستشفى البداري إلى مستشفى القصر العيني في أسيوط يتنقل حميد رزق السقا وهو يجرجر خلفه سنية وقد زاد انتفاخ بطنها وأنّات وجعها وسواد وجهها، يتنقل حاملاً الأشعة والتحاليل من هنا إلى هناك إلى هنا حتى يستقرّ به المطاف في مستشفى القصر العيني حيث قسم الاستقبال يكتظّ بالمصابين الغارقين في الدماء وبالأطباء

الحديثي التخرج التائهين في القسم، وحيث شكاوى الناس من ارتفاع أسعار الأدوية في الصيدلية الوحيدة بمستشفى ضخم كالقصر العيني، وشكواهم من قلة الأسرّة وقلّة الممرضات وقلّة الأطباء وقلّة الضمير وفقر الدم. ما بين كل هذا تتوه سنية في المستشفى وتختفي من أمام عيني حميد. ويأتي الليل، ويظل حميد المصاب بالعشى الليلي يبحث عن سنية دون جدوى، يبحث بين المرضى الغارقين في الدماء، يتحسّس جماجم تكسّرت عظامها، يقلّب في رؤوس انفصلت عن الأعناق، يسأل الأطباء ولا يجيبون، يسأل الممرضات ويتهربن، يضع آخر ما تبقّى معه من نقود في جيب عامل النظافة ويسأله فيعده بالبحث عنها، ويظل ينتظر، ويبحث عن سنية في المستشفى في نفس الوقت الذي كان فيه الناس ينتظرون ظهور نتيجة الانتخابات ومعرفة من سيكون رئيس مصر بعد ثورة يناير...

(١٩)

ينشغل رجال ونساء القرية وشبابها وأطفالها بموسم الحصاد، منهم من يشتري حبال الليف الرفيعة لربط القمح في حزم صغيرة تُسمى "كتايات"، ومنهم من يذهب إلى السوق ويشتري كميات من الحبال والمناجل. وعندما يؤذن الفجر يستيقظون ويأخذون أطفالهم وجراكن الماء[١] المغطاة بالخيش المبلول والممتلئة بالماء البارد، ويذهبون إلى حقول القمح الذهبية يحصدون القمح ويربطون كتاياته بالحبال الرفيعة، ثم يستريحون وقت الظهيرة من أشعة الشمس الحارقة والأرض التي تشعّ ناراً، يبحث كلٌّ منهم عن نخلة أو نبقة أو صفصافة أو شجرة جوافة أو مانجو أو ليمون، ويجلسون تحت ظلالها وهم يلتهمون الخبز البلدي بالجبنة القديمة اللذيذة بالبصل، ويشربون ماءً كثيراً من الجراكن المغطاة بالخيش، ثم يحتسون الشاي الأسود الثقيل، وبعد ذلك يقفون في تحدٍّ للشمس القريبة من رؤوسهم وحرارتها الحارقة فيستأنفون الحصاد وربط القمح وتحميله على الجمال، ثم رصّه فوق بعضه في الأماكن الفارغة المخصصة لذلك

١ جَرَاكن الماء: مفردها "جركن"، وهو إناء بلاستيكي لحفظ الماء.

والتي تُسمى "الجرون"، ثم الاستحمام وتناول العشاء الدسم وشرب الشاي، ثم الجلوس في المنادر أو المقاهي أوالرهبات والحديث عن الرئيس القادم. وفجأةً تنطلق الأعيرة النارية من كل مكان، يتساءل الناس، ويعرفون أن العيال السنية بقيادة عميرة يطلقون الأعيرة النارية ابتهاجاً بنجاح مرشحهم الملقب بالرئيس المسلم وأمير المؤمنين محمد مرسي!!

تزداد الأعيرة النارية فوق رأس الوزير، يعرف أن السنية يطلقون الأعيرة فرحاً بنجاح الرئيس مرسي، يلبس جلبابه غاضباً، يحمل رشاشه، ينزل وهو يصيح:

- العيال دي لازم تتربّى!

يمشي الوزير ممسكاً برشاشه متوتراً محتدّاً، وخلفه أخواه حامد وأبو زيد وأبناء عمه يتقدّمهم وائل خزام وهم ممسكون بالجرينوف والكلاشينكوف متجهين إلى جامع الشيخ سلمان أبوعلي. يصلون إلى الرهبة، ويلمحون مرسي وعصابته جالسين على الدكك وبأيديهم أسلحتهم، يتجاهلونهم ويستمرون في المشي حتى يصلوا إلى باب الجامع، يصيح الوزير في السنية بحزم وصرامة:

- بطّلوا ضرب نار في بيت ربنا.
- ع نفرِّح لريسنا.
- كفاية اللي فرحتوه ويالله على بيوتكم.
- إحنا فرحنا ل وش الصبح.

وفجأةً ينطلق الكثير من الأعيرة النارية الكثيفة، ويسقط هشام قتيلاً على باب الجامع. يصيح السنية: هشام إتقتل. تنطلق الأعيرة

من كل اتجاه، ينتشرالذعر والخوف في بيوت عزبة أبو الشامات وأبو كرسي. ينتشر خبر مقتل هشام وإصابة وائل ابن الحاج خزام عم الوزير ووحيده الذي جاءه بعد سبع بنات، لقد أُصِيب وائل بطلقة في عنقه، وفي المقابل أُصيب حمدون عم مرسي وزوج ميرفت بنت خزام أخت وائل بطلقة في ساقه، وتنتقل المعركة من معركة بين الوزير والسنية إلى معركة بين عائلة أبو الشامات التي يتزعمها الوزير وبين عائلة أبو كرسي بزعامة مرسي...

يحاول مرسي وأقاربه نقل مصابهم حمدون، وبسرعة يضعونه في سيارة ربع نقل من السيارات المخصصة لنقل الماشية، ويخرجون من بيوت القرية إلى المدخل الرئيسي المؤدّي إلى طريق سوهاج – القاهرة. وقبل أن يصلوا الكوبري ينهال الرصاص عليهم من كمين نصبه لهم شباب أبو الشامات، فيعودون مسرعين إلى الداخل حيث بيوتهم، ثم الجبّانة، ثم طريق ترابي يحيط بعزبة الخوف من الشرق، ثم طريق يوازي الجبل الشرقي الشاهق، ثم كوبري عزبة قطاع الطرق، ومنه يأخذون طريق سوهاج – القاهرة، وسط الحقول وأشجار المانجو التي تتدلى على الجانبين، وفي جو منعش معطّر بروائح الفاكهة. لا يذهبون إلى مستشفى البداري، إنما يذهبون إلى القصر العيني، يقولون إنهم لو ذهبوا إلى مستشفى البداري فربما يجدون عائلة أبو الشامات هناك ويتعرضون لنيرانهم، لهذا قرروا الذهاب إلى القصر العيني بأسيوط المدينة. وقبل أن يدخلوا القصر العيني يتصل بهم أبو مرسي، ويعرفون منه أن عائلة أبو الشامات اتّهمت مرسي وأباه وعمه حمدون بقتل هشام، فيصرفون النظر عن

الذهاب إلى القصر العيني ويذهبون إلى عيادة خاصة. يدفعون مبلغاً كبيراً من المال للطبيب، وبالفعل يُخْرِج الطبيب الرصاصة ويطبب الجرح. وقبل الفجر يعودون من حيث أتوا إلى بيوتهم، وهناك ينام حمدون – وهو يقبض بيده على موضع الرصاصة – على ذراع زوجته ميرفت أخت وائل المصاب بطلقة في عنقه، وهي بين نارين، زوج مصاب وأخ مصاب، والاثنان صارا عدوين، وهي لا تقدر على ترك زوجها ولا تستطيع الاطمئنان على أخيها وائل. أما مرسي فيرفع الأبراج والكمائن والحصون أعلى بيته المجاور لجامع الشيخ سلمان أبو علي، وكذلك البيت المجاور لقرية الخوف، وقبل أن ينتهي من بناء الأبراج والكمائن تأتي العائلات بالعشرين والثلاثين والخمسين رجلاً، كل رجلٍ بيده بندقيته وتتدلى من كتفه خريطة ممتلئة إلى أخرها بالذخيرة. وهكذا، عائلة تقوم وعائلة تأتي، عائلة تجامل مرسي بالذخيرة وأخرى بالسلاح وثالثة بالمخدرات ورابعة بالرجال، فالكل يعرف أن عائلة أبو الشامات لن تسكت على مقتل ولدها هشام مهما كلفها الأمر، فهل سيفعلونها؟ هكذا يتساءل الناس كلهم هنا...

(٢٠)

في مثل هذه الأيام كان حميد لا ينام. نعم، فقد كان يخرج من لحظة بزوغ أشعة الفجر وسماع زقزقة العصافير، حاملاً قربته وبيده سطله، يستمتع بلون أشعة الفجر الذهبية وهي تلامس الأشجار الخضراء والجبل بصفرته والماء بصفائه، ليسقي كل من يراه من أهل القرية، فيمرّ على الحصّادين، وهم تغطّي وجوههم السمراء أتربة القمح الناعمة في الحقول، ويمرّ على البنات اللاتي يجمعن بقايا سنابل القمح من الطرقات والحقول، ويسقي الرجال الجالسين على النوارج[1] وكراسيها الخشبية والعجلات الحديدية أسفل الكراسي، والأبقار التي تجرها وهي تدور في دائرة فوق عيدان القمح بهدف درسه وفصل الغلال عن التبن، ثم يسقي المقرقرين الذين يقفون على طرف الجرن أو في منتصفه، وهو يضمّ قمحاً مدروساً، ويمسكون بعصا المذراة الطويلة الصلبة، ثم يغرسون شوكتها ذات الأسنان القوية الحادة في القمح المدروس، ثم يرفعون بأسنان المذراة الكمية التي أمامها، فيداعبها الهواء

١ النَّوارج: مفردها "نورج"، وهو آلة مصرية قديمة لدرس القمح.

ويحرّك التبن بعيداً بينما غلال القمح الذهبية تتكوم أسفل المذراة. يُحرم حميد من هذه المناظر النهارية التي يراها بالألوان بسبب انشغاله بسنية زوجته وما حدث لها مؤخراً...

تمرّ الليلة ثقيلةً على الجميع، وخصوصاً عائلة أبي الشامات حيث أن رجالها ونساءها يقضون الليل جالسين أسفل جدران المستشفى منتظرين الطبيب الشرعي. ينقضي الليل ولا يأتي الطبيب، فقط تنزاح العتمة ويأتي الصبح قوياً فضياً حاراً يجبر الأجساد على دفع العرق غزيراً إلى الخارج. ثم يأتي الطبيب ويشرِّح جثة هشام، ثم يأمر بدفنه، وبسرعه يغسَّل ويكفَّن، ويضعه شباب أبو الشامات في سيارة نصف نقل. يقفز الرجال والشباب والنساء داخل السيارات، ويتحرك الموكب وسط صرخات النساء، وخاصةً أمه التي لم يمنعها من النحيب عليه التفاف النسوة حولها. ثم يصلون إلى المقابر، والصراخ يعلو، وينزلون، والصراخ يعلو، ويُنْزِلون الجثة، والصراخ يعلو ويعلو. يأخذ الرجال جثة هشام من الحسنية الخشبية، ويعلو الصراخ، يدفن اللحادُ هشاماً في قبر ترابه ملتهبٌ؛ في جبّانة أرضها تنفث ناراً من باطنها، والصراخ يعلو. تتقدم أمه لتدفن نفسها بدلاً منه فيمنعها الرجال، والصراخ يشتد. يضع اللحاد الجسد في المكان الذي أعدّه له، ثم يبني بالطوب اللبن قبواً فوق الجثة، يصعد إلى أعلى، يهيل التراب برفق، يعلو تراب القبر على الأرض، وهو يرشّ الماء على القبر يقول اللحاد مبهوراً:

- يادوب دخلته القبر والملايكة خطفته منّي خطف، وبعدين

حطته ف سفينة لونها زي الحليب، وبعدين دخلت بيه على مكان كله أخضر في أخضر...

يكبِّر العامة، تصرخ الأم صراخاً موجعاً، يعلن الأب وقد جفّ حلقه واحمرّت عيناه من كثرة البكاء أنه رصد مائة ألفٍ جنيه لمن يأخذ بثأره. يدعو اللحاد بالمغفرة للمتوفى، يردّد الأهالي، بينما على يمينهم وفي البرج الأيسر ومن فتحة ضيقة منه كان مرسي يومئ برأسه وهو يتمتم بكلامه ويهز بندقيته الآلية في ترقّب لأيّ حركة غدرٍ، ويطلب من أعوانه أن يشيعوا بين الناس أنه نصب مدافعه ناحية عزبة هارمينا، وفي حال هجوم الشرطة عليه سيفجّرها ويفجّر الكنيسة، ويقدّم مادة إعلامية للقنوات الغربية التي تستغل حوادث الفتنة الطائفية وتضغط على الحكومة!! كان مرسي يأمر أقاربه وأعوانه بذلك في الوقت الذي كانت فيه أم هشام بجوار قبر ابنها تصرخ صراخاً مفجعاً وهي تهيل التراب على رأسها وتلطم خدودها وتصيح:

– عايزة ولدي، أنت فين ياهشام؟

ورغم محاولات القريبات المستميتة لإبعادها عن القبر إلا أنها تتشبّث بتراب الجبّانة وهي تصرخ:

– هاتولي ولدي، هاتولي هشام ياناس...

كان حميد من خلف الزجاج المتّسخ يتفحّص مرضى الفشل الكلوي الذين جاؤوا إلى المستشفى ليغسلوا كلاهم، كانوا كثيرين وشاحبين ومتراصّين على الأسرة وأمام الأجهزة، وكان حميد يتفحّص الصف من أوله إلى أخره ثم ينظر إلى الصف الثاني، وهكذا

من أوله حتى أخره، ومن صف إلى صف إلى صف حتى آخر سرير في المعمل. لم يجد حميد سنية، استدار، أعطى ظهره لمرضى الفشل الكلوي وظلّ يتفحص القادمين والذاهبين وهو يدعو الله أن يجدها، لكنه لم يجدها. ثم نزل إلى الأسفل وسار بجوار جدار الاستقبال حتى وصل إلى الباب المفتوح، لكنه شعر بالتعب فنزل إلى الأسفل وقرفص ثم تربّع على بلاط المستشفى المتّسخ، ثم بلع ريقه ورفع يده اليمنى ليجفّف دمعةً سالت على خدّه وهو يسأل نفسه هل سيجد سنية أم أنها اختفت حتى لا تعذبه معها أكثر من هذا العذاب الذي عاشه؟

انشغلنا هذه الأيام بجلب درّاسات القمح ووضع القمح في الدرّاسات، ثم تعبئة غلال القمح في زكائب قماشية، ثم وضع التبن في شباك من حبال الليف، ثم نقل الغلال والتبن إلى المنازل، حيث نضع الغلال في الصوامع الكبيرة التي صنعتها أمهاتنا من روث الأبقار عندما خلطنه بطينٍ لدنٍ وبقليلٍ من التبن الناعم ببعض الحمرة، ثم شيّدن كل صباحٍ ما يقرب من الشبر حتى كبرت الصوامع وزاد ارتفاعها على المترين. كنّا نضع غلال القمح في الصوامع والتبن في الشونة[1] المخصصة لذلك ثم نذهب إلى أرضنا السمراء حاملين الفؤوس، ننقر الأرض بالفؤوس ونضع ثلاث أو أربع حبات من غلال الذرة، رفيعة كانت أو غليظة، في النقرة الواحدة، ثم نفتح الماء فينطلق في الأرض وتتصاعد الأبخرة من الأرض، ونحن نتبادل الحكايات عن الأطفال الذين يُختَطفون من أمام بيوتهم، ويقال إنهم يُذبحون

١ الشُّونة: جمعها "شوَن"، وهي مكان لحفظ وتخزين التبن.

وتُباع أجسادهم بالقطعة، أو نتبادل الحكايات عن سيارات النقل التي خُطفت، وعن الطرق التي قُطعت، وعن السلاح الكثير والمتنوع الذي دخل قريتنا وعُلِّق للبيع في واجهة الدكاكين كأكياس الشيبس، أو نحكي عن السلاح الذي خرج، أو نتبادل الحكايات عن الآثار التي نُهبت من أرضنا وكيف أنها خرجت بسهولة ودون أن يحاول أحدٌ منع ذلك، أو نتبادل الحكايات عن مرسي وكمية السلاح التي استحوذ عليها، وعن أصدقائه الذين زاد عددهم، وعن تخاذل الشرطة في القبض عليه بعدما ضاعت هيبتها في الخامس والعشرين من يناير. كنا أيضاً نتحدث عن تهديده للشرطة، حيث أنه أرسل إلى مأمور المركز يخبره بأنه لو حضرت الشرطة لتقبض عليه فسوف يفجّر عزبة الخوف بدانة من الدانتين. ولأنه عسكر في البيت المجاور لعزبة الخوف ووضع قاذفة آر بي جي مواجه الكنيسة فإن ذلك صعَّب الموقف على رجال الشرطة بل جعل الموقف مستحيلاً، وخاصةً عندما أرسل مرسي إلى مأمور البداري يخبره ويهدّده بقطع الطريق السريع من جنوب قريتنا ومن شمالها وإعلان استقلال قرانا الثماني عن الجمهورية وإطلاق اسم جمهورية قاو الكبيرة؛ القرية الأم لهذة القرى؛ على هذه المنطقة!!

(٢١)

كلما خرج أحدٌ من رجال أو شباب أبو الشامات كانت نظرات الناس تذبحهم، وكلما دخلوا بيوتهم كان صوت سارة أم هشام وهي تصرخ على ابنها وتتهمهم بعدم الرجولة يسدّ عن الأكل وعن مجامعة زوجاتهم. لهذا تجمّعوا كلهم في دوار الوزير وقسّموا أنفسهم عدة أقسام: قسم يكمن لمرسي غرب جامع الشيخ سلمان، وقسم خلف المدرسة الثانوية، وقسم عند مستودع البوتاجاز. وفجراً كنا نستيقظ على وابلٍ من الرصاص ونسأل:

– مرسي اتقتل؟

– لا.

نجلس لنتناول طعام الغداء فنسمع وابلاً من الرصاص ينهال من كل اتجاه، فنسأل:

– مرسي اِتقتل؟

– لا.

نجلس لنتناول طعام العشاء، وقد مللنا البقاء في بيوتنا ولم نعد قادرين على الذهاب إلى حقولنا أو مقاهينا، ليس لنا غير الاستماع إلى

التليفزيون عندما تأتي الكهرباء، هذا إن جاءت، نستمع إلى الرئيس مرسي وهو يدّعي أنه سدّد ديون بنك التنمية، فنفرح ونذهب إلى البنك فينفي ذلك فنحزن. ثم نراه يتّخذ قراراً ثم يتراجع عنه فتصغر صورته في عيون الجميع، مؤيديه قبل معارضيه، لكن واحداً من الماكرين يهمس، ونحن نشرب الشاي أمام البيت تحت ضوء التليفون المحمول، ويقول:

– اليومين الجايين الحكومة هاتيجي لمرسي.

لم نصدّقه وضحكنا عليه، وعلى الحكومة، وعلى الأوضاع التي آلت البلدُ إليها، لأننا عرفنا خوف الحكومة من تفجير كنيسة قرية هارمينا، وخوفها من إعلان استقلال جمهورية قاو. لكن في ظهيرة اليوم التالي، ونحن نهرب من الحرّ الشديد، نسمع هياجاً في شمال القرية، نجري ناحية جامع الشيخ سلمان، نرى رتلاً من سيارات الشرطة المصفّحة الزرقاء يتجاوز الجامع، وندرك تماماً أنّ مواجهة دامية ستندلع بين مرسي ورجاله من ناحية ومن ناحية أخرى الشرطة وعائلة أبو الشامات. لكن قبل أن تتجاوز سيارات الشرطة بيوت عائلة أبو كرسي تخرج نساء العائلة وبناتها متّشحات بالسواد وأطفالها ويضعون فلاق النخل[1] في عرض الطريق ويقطعون الطريق على رجال الشرطة، ويقفون صفوفاً خلف بعضهم في عرض الطريق وطولها وهم يصرخون ويتشبثون بأماكنهم. يحاول رجال الشرطة اختراق هذا السور البشري الذي صنعه الأطفال والنساء، لكنهم يفشلون، وخاصةً عندما تقول لهم

١ فلاق النخل: مفردها "فلق" وهو ناتج شقّ جذع النخلة بالطول إلى فلقين أو أربعة.

أم مرسي في حزم أن تقرير الطبيب الشرعي أثبت أن الرصاصة التي قتلت هشاماً قد جاءته من الخلف، وأن من قتله واحد من السنية، وهذا يعني براءة ابنها مرسي وتورّط الوزير أو أحد شباب عائلة أبو الشامات في مقتل هشام، ثم تقول لقائد الحملة:

– أنتو خايفين تقبضوا على الوزير ومستسهلين ولدي؟!

لا يجد المأمور فرصةً لاختراق هذا السور البشري العنيد، وحفاظاً على أرواح الأطفال والنساء يعطي أوامره لرجاله بالعودة من حيث جاؤوا. يشاهد الوزير عودة سيارات الشرطة فيغضب ويعطي إشارة البدء لرجال وشباب عائلة أبو الشامات بالتقدم نحو مرسي وأصدقائه. يطلقون أعيرتهم المتتابعة الكثيفة من بعيد، لا يهتم بهم مرسي ويظل في برجه يراقب الأمور وهو يدخن الحشيش. يزداد غيظ الوزير فيضغط على دوّاسة بنزين سيارته الملاّكي ويندفع ناحية البرج الذي يجلس فيه مرسي، وهو يطلق أعيرة كثيفة من بندقيته الآلية. يفتح مرسي ومن معه النار على سيارة الوزير، يقترب الوزير أكثر من البرج الذي يقف فيه مرسي خلف نيران رشاشه، يطلق الوزير طلقات كثيفة وسريعة لكن سيارته تصاب بطلقات متتابعة، ينشغل الوزير بسيارته التي تكاد تنقلب، يأخذ مرسي نفساً طويلاً من سيجارة الحشيش التي يدخنها ثم ينشّن[1] على الوزير، يصرخ الوزير:

– آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه يارجلي.

يتحمّل الوزير آلام الرصاصة في لحم ساقه، وبمهارة يهرب ويعود إلى البيت. يقابله أبوه وهو يلومه ويقول له إنه أشبه بمريض

---

١ ينشّن: يسدّد.

العشى الليلي الذي لا يرى تفاصيل الصورة جيداً ولا يقدّر الأمور حق قدرها، ثم يذكّره بأنه طلب منه ألاّ يتورط في معارك مع عائلات أخرى حتى لا يظهروا على حقيقتهم ولا يخسروا زعامتهم وسيادتهم المتوارثة على القرية منذ عشرات السنين، ثم يبصق عليه لأول مرة في حياته ويقول له بحرقة:

– بعمايلك الباردة راحت منك الزعامة ومرسي بقى الزعيم.

ثم يذكّره بأنّ أهل القرية الآن يعظّمون ويقدّرون ويهابون مرسي، أما أنت فلأنك لم تقدّرالأمور حق قدرها فقد خسرت مكانتك وأهنت عائلتك. يتألّم الوزير وهو يقبض بيديه على الجرح. أما مرسي ورجاله فيتركون الأبراج وينزلون لتناول غداءهم الذي جاءهم حالاً دسماً ساخناً شهياً...

يجلس حميد منكسراً حزيناً، ينظر يميناً ويساراً بحثاً عن سنية، يقف متحاملاً على ركبتيه، ينادي بصوتٍ حزين:

– سنية، أنتي فين يا سنية؟!

يمشي وسط المرضى والمصابين والدماء والأطباء وعاملي النظافة وهو يتفحص وجوههم. يأتي شاب مهذب وهو يصيح وينادي مخاطباً الناس:

– الست دي تبع مين يا ناس؟

لا يسمع حميد كلام الشاب جيداً، يكرّر الشاب:

– الست دي تبع مين يا ناس؟

لا يسمع حميد كلام الشاب جيداً فهو مشغول بسنية وغيابها

وكيف اختفت منه. يقترب الشاب أكثر، يعترض طريق حميد ويقول له في استفهام:

– ماتعرفش الست دي تبع مين يا حاج؟

ينظر حميد، ويحدّ النظر وهو يمسك عدستي نظارته، وبالكاد يرى امرأةً مستلقيةً بجوار الحائط على الأرض، يقترب أكثر ويحدّ النظر أكثر فيرى سنية زوجته والدم الأزرق يسيل من فمها ويغطّي طرحتها السوداء وثوبها وصدرها والبلاطتين اللتين أسفل رأسها. يصرخ حميد وهو يحضنها ويضمّها إلى صدره ويقول:

– سنية، ردّي عليا ياسنية!

– أنت تعرف الست دي ياحاج؟

(٢٢)

بسرعة يحمل حميد زوجته سنية على كتفه اليمنى ويخرج بها مهرولاً من المستشفى، لكن ما هي إلا خطوات ويحاصره رجال أمن المستشفى وهم يقولون:

- واخدها ورايح فين؟

- ماتت ورايح أدفنها.

- وهي زريبة يا حاج؟

- أنتو ماقبلتوهاش وهيَّ حية، مالكم بيها بعد ما ماتت؟!

- الناس هنا وهي ميتة أغلى منها وهي حية.

وبالفعل يأخذونها منه بالقوة بعد شدٍّ وجذب وتوسّل وقسوة. وبعد يومين يأتي الطبيب الشرعي ويشرِّح الجثة، يأخذون منها العينين والقلب وبعض الأعضاء الأخرى، ثم يسلّمونه الجثة ملفوفةً في كفن أبيض أخذوا منه ضعف ثمنه. يستلمها وقد نقص وزنها وتضاءل حجمها إلى أبعد حد، يستأجر لها سيارة دفن الموتى، يضع الجثة برفق في السيارة ويعود إلى قريته عبر طريق يمتد لمدة ساعة ونصف، ورغم أنّ الطريق تحفّه أشجار المانجو واليوسفي والبرتقال

والرمان إلا أن رائحة عفن جثة سنية تنتشر ممّا أجبر السائق على أن يسرع بسيارته حتى يصل إلى مقابرالقرية. يقابله اللحاد، يطلب منه أن يدفن زوجته، يطلب منه اللحاد أجرة الدفن، يقول له حميد إنه لا يملك أي نقودٍ الآن فلقد دفع كل ما كان معه للمستشفى، يتركه اللحاد وينصرف عائداً إلى بيته رافضاً دفن سنية، يتوسل حميد ويرفض اللحاد أن يعود. لا يجد حميد مفراً غير أن يحفر القبر بنفسه، ويدفن سنية زوجته، ويهيل عليها التراب، ويرش عليها الماء، ويقرأ لها الفاتحة ويدعو الله أن يرحمها ويجعل مثواها الجنة، ثم يخطو عائداً إلى بيته وقد انحنى ظهره واستطال قفاه وثقلت خطاه. وما أن يصل إلى الرهبة حتى يجلس تحت الجميزة ويتذكر اللحظات الجميلة التي عاشها مع سنية، ثم يبكي وينزل الدمع على نظارته غزيراً، يخلع النظارة، يجففها بكمّ جلبابه، يلبسها، ينظر إلى يمينه، يرى الدموع تسيل غزيرةً من عينَي حماره العجوز. ينهق الحمار بصوتٍ مفزعٍ للغاية ثم يتكوّم جثةً هامدة على الأرض. يدرك حميد أنّ الحمار قدّ حزن على سنية وعليه هو أيضاً، ولم يقدر على تحمّل كل هذا الحزن فمات كمداً. يمطّ حميد شفتيه ويمسك بالقربة، وهي ممتلئة بالماء، وببعض الحبال المصنوعة من الليف، يصعد الجميزة حتى يصل أعلى نقطة فيها، يربط فرعاً بفرعٍ بفرعٍ بفرعٍ حتى يكوّن حجرةً ضيقةً من فروع الجميزة، ثم يقفّ ويفتح صدره وينظر إلى الناس الذين تجمعوا بكثافة أسفل الجميزة، وهو يضحك ضحكاً هستيرياً ويصم أذنيه عن كلامهم، ثم يرفع حجر جلبابه الواسع إلى أعلى ويضع يده السمراء العفية الصلبة داخل سرواله القطني المتسخ ويخرج قضيبه

الطويل الأسود المرتخي كسمكة قزموط بالغة، ويحرّك قضيبه إلى أعلى وأسفل مرات عديدة وهو يبول على الناس ويقطر عليهم ماء بوله الأصفر في كل الجهات وهو يضحك، ثم ينظر إلى أعلى حيث الغربان السود غطّت سماء القرية غير مكترثٍ بالرصاص الأحمر الذي انتشر غزيراً، والأصوات المرتفعة التي تعالت وهي تقول إنّ الحكومة ومرسي وعائلة أبو الشامات يضربون بعضهم بعضاً بالأسلحة الثقيلة ضرباً مبرحاً جعل سماءنا الصافية ناراً وسعيراً لا يحتملهما العقلاء ولا الأنقياء ولا الطيبون ولا الفقراء والمهمّشون في الجنوب المنسي منذ عقودٍ طويلةٍ.

تمّت في ٢٠١٣/٨/١٤
في قاو، العتمانية، أسيوط، مصر

تسجيل صوتيّ لمكالمة هاتفيّة بين زوجة الوزير فيفي وعشيقها ينتشر في قرية قاو في الريف المصريّ ليكون سبباً في زيادة الانقسام بين أبنائها. انقسام حول شأن اجتماعي يعزّز الخلاف السياسي القائم ويسهم في تأجيج الصراع في زمن الثورة التي اضطرمت نارها في البلاد وبدأ لهيبها يصل القرية النائية. قرية وصلتها التكنولوجيا وهي لا تزال محرومة من أبسط مقوّمات الحياة لتعيش حالة من الفانتازيا الموجعة في تفاصيلها.

يصل الإخوان المسلمون إلى الحكم وتستمرّ معاناة أهل القرية جرّاء وعود لم تتحقّق. ليجد التيّار السلفيّ في الأوضاع المزرية لأبناء القرية بيئةً خصبة لنشر فكره التكفيري ونشر ثقافة السلاح.

رواية تحكي وجع شعبٍ أدمنت القوى السياسية استغلاله ممعنةً في اضطهاده وتجهيله حتى في زمن الثورة التي آمن بها كبوابة للخلاص من معاناة لطالما أضنته.

ماهر مهران كاتب وروائي مصري. تخرّج من كلية التربية في جامعة أسيوط. مؤلّف ومعدّ برامج في اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصري وعضو اتحاد كتاب مصر.

ISBN 978-6-14425-775-3

DAR AL SAQI

www.daralsaqi.com